جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بكفر الشيخ

المؤتمر الدولي الأول تحت عنوان : "البعد الإنساني في التراث العربي والإسلامي"
٢٩ من ذي الحجة ١٤٤٢ هـ = الموافق ٨ أغسطس ٢٠٢١م

النهي عن ما يسوء النفس البشرية في نظم سورة الحجرات المدنية
(السخرية، اللمز، التنابز)

للدكتورة/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد
مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بكفر الشيخ- جامعة الأزهر

النهي عن ما يسوء النفس البشرية في نظم سورة الحجرات المدنية (السخرية، اللمز، التنابز)

أمل محمد عبد الفراج علي راشد
قسم التفسير وعلوم القرآن – كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بكفر الشيخ– جامعة الأزهر – مصر

الملخص :

هذا البحث عنوانه: (**النهي عن ما يسوء النفس البشرية في نظم سورة الحجرات المدنية "السخرية، اللمز، التنابز"**). وقد عُنِيَ بدراسة ظاهرة مجتمعية، في صورة خلل نفسي، وسلوك غير آدمي، طُرِحَ على ساحة المجتمع الإسلامي، الأمر الذي استدعى المواجهة الإلهية، والمعالجة الربانية؛ حفاظًا على سياج المجتمع ووحدته، وقد تمثل ذلك الخلل في أفعال (السخرية، واللمز، والتنابز). وقد عمدت فيه الكشف عن رسالة المفردات محل النهي؛ انطلاقًا من تحليلها في ضوء لغتها، والإفادة من ثراء استعمالات لسانها، مع اعتماد مبدا التوسع في معناها بتوظيف دلالتها، وتفعيل ثرائها المعنوي، وإعطائها حقها المتسق لسعة مساحتها التعبيرية، والذي آل إلى الكشف عن حقيقتها، وارتسام صورها، وإعلان أسبابها، وتقديم العلاج الناجع إزاءها، وكلُّ ذلك بأسلوبٍ معجزٍ، ضمن بناءٍ محكمٍ ببيانٍ عربيّ مفرَّدٍ، يتقرَّر في ضوء دراسة عناصره، والوقوف على رسائل لبناته، سموُ النظم البيانيّ، ويتأكد في ظله حيثيات الإعجاز القرآنيّ!

وقد انتظم البحث في: مقدمةٍ، وتمهيد، وتوطئة، وثلاثة مباحث، وخاتمة. واتبعتُ فيه المنهج التحليلي بنمطٍ موضوعيّ.

ومن نتائجه:

أولًا: تقرير أولويات الباحث في النظم القرآني، وارتسام آليته ممثلةً في بحثه عن أوجه الإعجاز الكامنة في ثناياه، والبحث في أعماق لبناته، واستخراج ما فيها من معانٍ وافرةٍ، واستخلاص ما انفردت به من دلالاتٍ صادقةٍ، وإظهار ما حملته في أعماقها من بديع الإشارات وعظيم الإيحاءات، واستنباط ما في مطاويها من الفوائد والحكم والأسرار؛ ليقف على إبداع النظم، وإحكام النسج. **ثانيًا**: إثبات إعجاز المفردة القرآنية في نظمها، واستجلاء أوجه تمكنها في مقامها، في ضوء خصائصها العربية، وظلال سعة مساحتها التعبيرية، وثراء منظومتها الدلالية. **ثالثًا**: تسجيل أن السبيل إلى تفسير كلام الله ﷻ هو العلم بلغة وحيه، والتعرف على خصائص لسان تنزيله. **رابعًا**: تأكيد وجوب التسلح

باللغة العربية، وفهم مفاتحها لكل مَنْ أراد التشرف بولوج ساحة النظم القرآني؛ ليَتَسَنَّى له دراسة فرائده، ويتعرف على حقائقها، ويفهم من خلالها رسائلها البيانية، ويقف على وظائفها المقامية، ويستجلي وجوه إعجازها السنية. **خامسًا**: التعرف على أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم، ألا وهو الإعجاز النفسي ممثلًا في صدق المفردة على حدثٍ له أسبابه النفسية الدافعة، ونجاحها في مواجهته اعتمادًا على مواجهة نفسية الجاني، وعلاج نفسية المجني عليه. **سادسًا**: الإعراب عن مظاهر الرحمة الإلهية، وبديع العناية الربانية، مصورةً في تصحيح ما طرأ على المجتمع الإسلامي من قبائح أخلاقية، وسلوكيات غير حضارية، تتنافى مع جليل دوره الإرشادي، وبليغ مقامه الدعوي المنوط به على المستوى البشري، وذلك بأسلوب معجزٍ يناسب مع كل زمكانٍ باتساعه وشموله لكل ما يصدر من قبائح عن أفراد الإنسان.

ومن توصياته: تناول الموضوعات القرآنية في إطار سبب النزول، وبيان أوجه المعالجة القرآنية لها، والإفادة منها في واقعنا المعاصر، خلوصًا إلى إثبات صلاحية القرآن لكل زمكان.

وكلماته المفتاحيَّة: (النهي، يسوء، النفس، الحجرات).

المقـــــــــدمة

بسـمِ اللهِ الـرحمنِ الـرحيمِ، الحمـدُ للهِ الـذي أنارَ الـدنيا بضـياءِ العلـمِ، وشمـوسِ المعرفـةِ، والصـلاةُ والسـلامُ علـى النبـيِ المصـطفى ﷺ، وآلـهِ، وصـحبهِ ﷺ، ومَـنِ اقتفـى، أثـرَه المسـتمدَ مـن الكتـابِ العزيزِ، والسنةِ المشرفةِ.

أمَّا بعــد، فهذه دراسة تفسيرية تحليلية تعالج موضوعًا على جانب كبير من الخطورة، والأهمية، وهو أسباب القتل المعنوي، والدمغ النفسي، وتُعْنَى بالحديث عن نفسية الإنسان، ودعائم الحفاظ عليها، ذاك المخلوق الذي أخضع له الخالق ﷻ الكون، وأناط به الخلافة فيه، وأحاطه بكامل مظاهر الرعاية، وبديع ألوان العناية؛ فملَّكه الأسباب، وأحاطه بالمسببات: المادية، والمعنوية، والتي من شأنها المحافظة عليه: ظاهرًا، وباطنًا، ومن ثَمَّ فأردت إلقاء الضوء على أحد مظاهر تلك الرعاية، وهاتيك العناية، من خلال دراسة بعض أسباب إيذاء النفس البشرية، في ضوء سورة الحجرات، **وهي بعنوان: (النهي عن ما يسوء النفس البشرية في نظم سورة الحجرات المدنية "السخرية، اللمز، التنابز")**.

سـبب اختيـار الموضـوع:

وقد دفعني إلى هذا البحث بعد إرادة الله ﷻ عدة أسباب، في طليعتها ما يلي:

أولًا: تقديم دراسة تفسيرية تُعْنَى بالحفاظ على نفسية الإنسان، من خلال أسباب النزول، يتجلَّى من خلالها مدى العناية الإلهية بما يستجد من قضايا وأحداث في المجتمع الإسلامي، ومواجهتها: إصلاحًا، وإرشادًا، وبيان أنه قد خوطب بما يسهم في الحفاظ عليه، والرقي به، وإعداده على المستوى الفردي والجماعي.

ثانيًا: الإسهام في تسجيل أوجه المعالجة الناجعة إزاء ما يطرأ على مجتمعنا، من الملامح السلبية، والآثار الناجمة عنها، والتي تتطلب المواجهة لا سيما في ضوء القرآن الكريم.

ثالثًا: العمل على إبراز دراسةٍ تفسيريةٍ تجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ اتساقًا مع متطلبات العصر، واستجابةً لضرورة التجديد في الخطاب الديني، والذي ينتظم التجديد في التفسير في المقام الأول، وذلك من خلال النظر في مواجهة القرآن الكريم لما استجد من قضايا، وتنزيل ذلك على الواقع المعاصر؛ للإفادة منه، وتقرير إعجازه انطلاقًا من مبدأ صلاحيته لكلِّ زمكانٍ.

رابعًا: القيام بواجب المسئولية نحو الكشف عن مراد الله ﷻ من كلامه قدر الطاقة البشرية؛ استجابةً لنداء الإيمان، وتلبيةً لحق العلم بالبحث عنه تارةً، وبذله أخرى.

خامسًا: العمل على ربط علوم القرآن بالدرس التفسير ضمن عملٍ تطبيقيٍّ، وذلك بتحليل عناصر النظم مع استحضار سبب نزولها، واستجلاء وجوه إعجازها، واستخلاص براهين إلهيتها.

الهدف من دراسته:

أولًا: الإسهام في خدمة الكتاب العزيز من خلال النظر في قضاياه، وموضوعاته، والغوص في نظمه، وتأمل تراكيبه؛ **لإبرازِ** الطبيعة الجمالية في المعالجة القرآنية لما يستجد في البيئة الإسلامية، من قضايا، وأحداث، **وإظهارِ** روعة وجمال الأساليب القرآنية في التعبير عنها، ومواجهتها، **وبيانِ** مدى عناية القرآن بالجانب الاجتماعي، وتشريع ما به الحفاظ عليه، وإرساء دعائمه، وترسيخ قواعد بنيانه.

ثانيًا: إظهار وظيفة المفردة القرآنية في الجانب التشريعي، والبحث في دقائقها، والتنقيب عن أسرارها؛ للوقوف على بلاغتها، وجلاء حيثية الإعجاز البياني في إيثارها.

ثالثًا: التأكيد على بلوغ النظم القرآني القمة في سبكه: لغةً، وأسلوبًا؛ بحيث لا يمكن لأحد تغيير ما أثبت فيه، ولا الاستعاضة عن بعض لبناته بسواها، مما هو قريب منها، أو مرادف لها.

رابعًا: إماطة اللثام عن حقيقةٍ مؤداها: أن القرآن بتشريعاته، وأساليبه، ونظمه، وسائر فرائده.. صالح لكل زمكانٍ، وأنَّ إعجازه باقٍ إلى أَنْ يرث الأرضَ الملكُ الديانُ ﷻ.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسات مستقلة لهذا الموضوع في قسم التفسير وعلوم القرآن، وبعد البحث والاطلاع؛ تبيَّن أنَّه لم تسبق دراسته بالطريقة التي سأتناوله بها– إن شاء الله ﷻ –، وقد جاءت الإشارة الإجماليَّة إليه في ثنايا كتب التفسير، دون التعرض لبيان روعة الأسلوب القرآنيّ، وبلاغة مفرداته، أو دقة نظمه، وإعجاز بيانه.

أهمية الدراسة:

هذا، وتتقرر أهمية تلك الدراسة في ضوء ما انطوت عليه من قضايا تفسيرية، عُنِيَتْ في المقام الأول بمواجهة ما طرأ على البيئة الإسلامية من أمور تأبى الانتظام في جميل عقد آداب الإسلام، وتندُّ عن عظيم سلك أخوة الإيمان، **ويمكن تلخيصها من خلال الأوجه التالية:**

أولًا: أنها تتضمن شرحًا وافيًا لأهم أسباب القتل المعنوي في نظم سورة الحجرات، وتجلي بديع العناية الإلهية، وروعة المعالجة الربانية للقضايا المستجدة على الواقع الإسلامي، مبينةً دقة التراكيب القرآنية في التعبير عنها، وبلاغة مفرداتها، وإعجاز نظمها في مواجهتها.

ثانيًا: أنه يَتَأَتَّى من خلالها تنزيل نصوص القرآن على واقع الحياة وقت نزوله، والتعرُّف على ما استجد فيه من قضايا، والربط بين الأسباب، ومسبباتها؛ للإفادة من المعالجة الإلهية تجاهها.

ثالثًا: أنها قامت على بيان مدى استجابة المفردة القرآنية لسياقها، وتمكنها [1] بين عناصر سبكها؛ مما يلقي الضوء على بلاغتها في النظم القرآنيّ، ويثبت حيثية إعجازها البيانيّ.

موضوع البحث، ومقصده:

ينصب موضوع البحث، وتتجه غايته نحو النواهي الواردة في نظم سورة الحجرات، ممثلةً في النهي عن: السخرية، واللمز، والتنابز، ولا تُعْنَى هذه الدراسة بالآية المنطوية على هذه النواهي: جملةً، وتفصيلًا، بل يتجه القصد إلى نفس النهي أصالة [2]، وبيان المقصود منه، وإظهار وجه تمكنه في النظم، وجلاء حيثية إعجازه في السبك.

مشكلة البحث:

من المشكلات التي عُنِيَ البحث بها: هي الإجابة عن الأسئلة التالية:

- هل كان لسبب نزول الآية دور وظيفي في فهمها؟
- ما حقيقة السخرية؟ وما سرُّ التعبير بها؟
- هل جاء النهي عن السخرية متمكنًا في نظمه ومعجزًا بيانيًا في مقامه؟
- ما وجه انتظام فعل السخرية مع التعبير بـ **(قَوْمٌ)**؟
- لماذا جاء النهيُّ عن السخرية مشفوعًا بسلك التعليل؟ وما دوره في المواجهة العلاجية المنشودة في النظم؟
- ما أبرز مظاهر التقويم الإلهيّ في مواجهة أوجه الخلل الطارئة على المجتمع الإسلاميّ؟
- ما حقيقة اللمز؟ وما سرُّ التعبير به؟

---

(١) قال الإمام الزركشي معرفًا بالتمكين، ومبينًا سره: " هُوَ أَنْ تَأْتِي الكلمة ممكنة فِي مَكَانِهَا، مُسْتَقِرَّةً فِي قَرَارِهَا، مُطْمَئِنَّةً فِي مَوْضِعِهَا، غَيْرَ نَافِرَةٍ، وَلَا قَلِقَةٍ، مُتَعَلِّقًا مَعْنَاهَا بِمَعْنَى الْكَلَامِ كُلِّهِ، تَعَلُّقًا تَامًّا بِحَيْثُ لَوْ طُرِحَتِ؛ اخْتَلَّ الْمَعْنَى، وَاضْطَرَبَ الْفَهْمُ. وَهَذَا الْبَابُ يُطْلِعُكَ عَلَى سِرٍّ عَظِيمٍ مِنْ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ؛ فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِهِ". البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين الزركشي: ١/ ٧٩ بتصرف. وتبعه الإمام السيوطي مضيفًا: " بِحَيْثُ لَوْ سُكِتَ عَنْهَا؛ كَمَّلَهُ السَّامِعُ بِطَبْعِهِ ". الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي: ٣ / ٣٤٥.

(٢) هذا، وقد أتعرض لما نيط بالنهي من مفردات، أو ألقي الضوء على ما فيه من قضايا؛ لبيان وجه التناسب، أو الاستشهاد على بعض ما تُعْنَى ببيانه الدراسة.

- ما وجه انتظام النهي عن اللمز عقب النهي عن السخرية؟
- ولماذا آثر عنوان النفس معمولًا للمز في هذا النظم؟
- ما أبرز أوجه الفرق بين السخرية واللمز؟
- ما حقيقة التنابز؟ وما سرُّ التعبير به؟
- لماذا جاء النهي عن التنابز بصيغة التفاعل؟
- ما دلالة الاقتطاع في عمارة النهي القرآني **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**؟ وما أثره التفسيري؟
- ما وجه التناسب بين الجرائم المذكورة في سلك المنهيات، وبين العقاب المترتب عليها حال اقترافها؟
- كيف تحققت الآية الكريمة بإعجاز المواجهة لأسباب القتل المعنوي؟
- هل عالجت النواهي المذكورة ما طرأ من خلل على المحيط الإسلامي؟

خطة البحث:

أمَّا عن خطة البحث: فقد اقتضى الحال انتظامه في: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وتوطئةٍ، وأربعة مباحث، وخاتمةٍ، مذيلة بفهارسَ علميَّةٍ.

أما المقـــــدمة: فقد ضمنتها سبب اختيار الموضوع، والهدف من دراسته، والدراسات السابقة، وأهمية الدراسة، وموضوع البحث، ومقصده، ومشكلة البحث، وخطته، ومنهجه.

وأما التمهيد: فهو التعريف بسورة الحجرات. **وفيه خمس مسائل**.

المسألة الأولى: اسم السورة، ووجه تحقيقه.

المسألة الثانية: وقت نزول السورة، ومكانها، وعدد آياتها.

المسألة الثالثة: مقصد السورة.

المسألة الرابعة: مناسبة السورة لما قبلها.

المسألة الخامسة: هدفها، وأهم وأغراضها.

وأما التوطئة: فهي أسباب القتل المعنوي في نظم الآية إجمالًا. **وفيها مسألتان**.

المسألة الأولى: مناسبة الآية لما قبلها.

المسألة الثانية: سبب نزول الآية.

وأما المبحث الأول: فعنوانه: النهي عن السخرية. **وفيه أربعة مطالب**.

المطلب الأول: حقيقة السخرية في ضوء الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.

المطلب الثاني: حقيقة النهي عن السخرية عند السادة المفسرين.

المطلب الثالث: التوسع في المعنى بتوظيف الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية. **وفيه ست مسائل**.

المسألة الأولى: الكشف عن حقيقة المفردة، وارتسام صورها.

المسألة الثانية: الإيحاء بالبعد النفسي عند طرفيها. **وفيها نقطتان**.

النقطة الأولى: الإفصاح عن نفسية الساخر، ومواجهته.

النقطة الثانية: إبراز نفسية المسخور منه، وارتسام آلامه الدامغة.

المسألة الثالثة: إظهار مدى الآثار السلبية على البيئة الإسلامية، وجلاء بديع العناية الربانية.

المسألة الرابعة: التحذير من عواقب المخالفة.

المسألة الخامسة: إبراز مظاهر التقويم الإلهي، والمعالجة الربانية.

المسألة السادس: الحث على الامتثال لموجب التشريع الإلهي.

المطلب الرابع: تتمات تفسيرية. **وفيه ثلاث مسائل**.

المسألة الأولى: إيثار التعبير بعنوان **(قَوْمٌ)**.

المسألة الأولى: دلالة التنكير في المفردة **(قَوْمٌ)**.

المسألة الثانية: تصحيح التصور الإيماني بمجيء التشريع مشفوعًا بالتعليل. **وفيها نقطتان**.

النقطة الأولى: الرد على الساخر، ومواجهته.

النقطة الثانية: تسلية المسخور منه، وتحقُّق بشارته.

وأما المبحث الثاني: فعنوانه: النهي عن اللمز. **وفيه ستة مطالب**.

المطلب الأول: مناسبة جملة النهي لما قبلها.

المطلب الثاني: حقيقة اللمز. **وفيه ثلاث مسائل**.

المسألة الأولى: حقيقة المفردة القرآنية في ضوء الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.

المسألة الثانية: حقيقة المفردة عند السادة المفسرين.

المسألة الثالثة: التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية. **وفيها خمس نقاط**.

النقطة الأولى: الكشف عن كُنْه المفردة،

النقطة الثانية: ارتسام صور حقيقتها.

النقطة الثالثة: الإيغال في الإعلان عن آلية التحقق بها.

النقطة الرابعة: الإيحاء بالأثر النفسي الباعث لها، والناجم عنها.

النقطة الخامسة: التحذير من التلبس بحقيقتها، والتنفير عن تعاطيها، ومقارفة صورها.

المطلب الثالث: دلالة التعرض لعنوان النفس. **وفيه ثلاث مسائل**.

المسألة الأولى: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.

المسألة الثانية: الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين.

المسألة الثالثة: التوظيف اللغوي لمدلولات مادة المفردة، وأثرها التفسيري. **وفيها ثلاث نقاط**.

النقطة الأولى: تناغمها مع تقرير مبدأ الأخوة الإيمانية.

النقطة الثانية: اتساقها مع تصوير شناعة المنهي عنه، وإعلان قبح آثاره.

النقطة الثالثة: مبالغتها في الردّ عليهم، ومواجهة أفعالهم.

المطلب الرابع: الدلالة الصرفية للمفردة القرآنية.

المطلب الخامس: الدلالة البلاغية للكلمة القرآنية.

المطلب السادس: لطيفة تذييلية في استخلاص الفرق بين السخرية واللمز.

وأما المبحث الثالث: فعنوانه: النهي عن التنابز بالألقاب. **وفيه ثلاثة مطالب**.

المطلب الأول: مناسبته لما قبله.

المطلب الثاني: سبب النزول.

المطلب الثالث: حقيقة التنابز بالألقاب. **وفيه أربع مسائل**.

المسألة الأولى: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.

المسألة الثانية: حقيقة التنابز عند السادة المفسرين.

المسألة الثالثة: التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، وتفعيل الأوجه التفسيرية. **وفيها خمس نقاط**.

النقطة الأولى: الكشف عن حقيقة المفردة، وارتسام صورها.

النقطة الثانية: الإيحاء بالبعد النفسي عند طرفيها. **وفيها محوران**.

المحور الأول: المواجهة بإعلان البواعث النفسية عند فاعليها.

المحور الثاني: الكشف عن الأثر النفسي المستتبع لها.

النقطة الثالثة: المواجهة الإلهية لما يسوء النفس البشرية. **وفيها خمسة محاور**.

المحور الأول: التوسع المعنوي في التعبير القرآني، وأثره التفسيري.

المحور الثاني: إعلان البواعث النفسية والآثار السلبية جراء مقارفتها.

المحور الثالث: إعلان أسباب النهي عنها.

المحور الرابع: الإسهام في الرد على الفاعلين تحقيقا للتسلية، وتذكيرا بحقيقة الحال.

المحور الخامس: الكشف عن مردود التلقيب بما يسوء، والمعايرة بالمعاصي.

النقطة الرابعة: دعوة المفردة إلى كريم الخلال.

النقطة الخامسة: تناغم المفردة مع عناصر نظمها، واستجابتها لفرائد صرحها.

المسألة الرابعة: الدلالة الصرفية للمفردة، وأثرها التفسيري. **وفيها نقطتان**.

النقطة الأولى: قالب التفاعل، وأثره في النظم.

النقطة الثانية: الاقتطاع في بنية المفردة، وأثره التفسيري.

وأما المبحث الرابع: فعنوانه: العقاب المترتب على الجرائم المذكورة. **وفيه مطلبان**.

المطلب الأول: وجه النظم.

المطلب الثاني: تناغم فرائد الجزاء مع الفعل المتوعد عليه. **وفيه عشر مسائل**.

المسألة الأولى: بدء سلك العقاب بأسلوب الذمّ، وأثره التفسيري.

المسألة الثاني: إيثار التعبير بعنوان الاسم، وأثره التفسيري.

المسألة الثالثة: ذكر المخصوص بالذمّ بموضوع الفسق، وأثره التفسيري.

المسألة الرابعة: سرُّ التقييد بقوله ﷻ: (بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ)، وأثره التفسيري.

المسألة الخامسة: إيثار الاسم الموصول في جملة الشرط (وَمَن)، وأثره التفسيري.

المسألة السادسة: التعرض لعنوان التوبة في صلة الموصول (لَّمۡ يَتُبۡ)، وأثره التفسيري.

المسألة السابعة: سرُّ ارتباط جواب الشرط بـ (الفاء)، وأثره التفسيري.

المسألة الثامنة: إيثار اسم الإشارة (أُوْلَٰٓئِكَ)، وأثره التفسيري.

المسألة التاسعة: إيثار ضمير الفصل، وأثره التفسيري.

المسألة العاشرة: إيثار عنوان الظلم، وأثره التفسيري.

وأما الخاتمة: فقد ضمنتها بعد حمد الله ﷻ، والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ: أهم النتائج التي أثمرها البحث، وأبرز التوصيات، والاقتراحات التي خالجت نفسي، ورجوت أن تخرج إلى ساحة البحث كموضوعات مستقلة، تخدم القرآن الكريم، وتبرز إعجازه البياني، وذيلتها بالفهارس العلمية التي تخدمه.

منهج البحث، وإجراءاته:

هذا، وقد اعتمدت في دراستي المنهج التحليلي، بنمط موضوعي في طريقة العرض؛ فأقوم بدراسة النواهي محل البحث، سالكةً في سبيل البحث، والتدقيق، والاستنباط، **الخطواتِ التاليةَ**:

١ – أثبت الآية التي اشتملت على النواهي المرادة، مقرونةً بذكر اسم السورة، ورقم الآية، مقدمةً لها بعنوان مناسب، مراعيةً كونه معبرًا عن جوهر موضوعها، أو أهم وأبرز مسائلها.

٢ – أذكر مناسبتها لما قبلها، ووجه نظمها، ثُمَّ سبب نزولها.

٣ – أدرس كلَّ نهي على حدة، فأذكر مناسبته لما قبله، وسبب نزوله– إن وجد مستقلًا–، وأتعرض لسرِّه، وغايته.

٤ – أؤصل حقيقة السخرية واللمز والتنابز؛ فأحلِّل مادة المنهي عنه تحليلًا لغويًا دقيقًا، يشمل الرجوع بها لجذورها اللغوية، مبينةً استعمالاتها عند العرب– ما أمكن ذلك–؛ كشفًا عن حقيقتها، وإعرابًا عمَّا يتعلق بها؛ ممَّا يجلِّي حيثيات إلهيَّتها كمفردة قرآنية، وأوجه إعجاز اصطفائها كلبنة سياقية.

٥ – أبيِّنُ حقيقة المفردات في ضوء التراث التفسيريّ، فأجمع أقوال المفسرين حول المفردة المذكورة تحت عنوان: (الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين)؛ لأبيِّنَ مدى تأثرهم بالدلالة اللغوية، وتفعيلهم لما انطوت عليه، وارتسام دورهم في إبراز مكانة البنية القرآنيَّة؛ استشهادًا بذلك على صحة القول بالتوسع في المعنى، ودعمًا لاعتماده سبيلًا مقررًا، ومنهجًا محقَّقًا، في التعامل مع المفردة القرآنية، الموسومة في محكم التنزيل بكونها عربيةً؛ إذ به يتمُّ الكشف عن سرِّ اصطفائها في مقامها، وتعلن حيثية إعجازها في مقامها.

٦ – أعتمدُ مبدأ التوسُّع في المعنى؛ بتوظيف ما تعلَّق بتسمية المنهيات من دلالاتٍ عربية عميقةٍ، وما أنيط بها من استعمالاتٍ لسانيَّةٍ أصيلةٍ، وما ارتبط بها من معانٍ ساميةٍ، وفاض عنها من إشاراتٍ سامقةٍ، وما أومأت إليه من إشعاعات مطاوٍ معبرةٍ، وظلال أبعادٍ معنويةٍ صادقةٍ.

٧ – أوجِّهُ جميع ما انطوت عليه المفردة من دلالات، وما نيط بها من استعمالات، وأنزلها على السياق، وذلك لبيان بلاغة ما ذكر، وتقرير كونه ركنًا من السياق؛ فلا يمكن الاستغناء عنه، أو تغييره بسواه، وذلك تحت عنوان: (التوسع في المعنى)؛ كشفًا عن سرِّ إيثارها، وإظهارًا لنكتة التعبير بها، واجتلاءً لحيثية تمكنها في نظمها، وتسجيلًا لإبداع تناغمها مع لبنات سبكها، وإبراز مدى استجابتها لمقصد سياقها؛ ممَّا من شأنه إثبات سمو نظمها القرآنيّ، وتقرير حقيقة إعجازها البيانيّ.

٨ – أُجَلِّي وجوه الإعجاز في المفردة القرآنيَّة في ضوء استظهار حكمة إيثارها مقامًا، وإعلان حيثيات تمكنها نظمًا؛ تقريرًا لسموِّ وقعها، وإثباتًا لإلهيَّة مصدرها.

٩ – أعلِّق على أقوال العلماء، والسادة المفسرين في ثنايا الشرح، والتحليل؛ لإيضاحها، وبيان المقصود منها، أو شرح ما انطوت عليه من فنون: نحوية، وبلاغية، وغير ذلك.

١٠ – أقتصر عند ذكر الآيات في ثنايا الشرح على موضع الشاهد فقط.

١١ – أخرّج الأحاديث الواردة في البحث، وفق المنهج المعتمد في ذلك، مع الحكم عليها ما لم تكن في الصحيحين أو أحدهما، والتعليق على المُشْكَل، والغريب منها.

١٢ – أخرّج الأبيات الشعرية– إن وجدت– من مصادرها المعتمدة.

١٣ – أبيّن المصطلحات العلمية غير المشهورة، والألفاظ الغريبة، وذلك عند ذكرها لأول مرة.

١٤ – أترجم للأعلام غير المشهورين ترجمةً موجزةً عند ذكرهم لأول مرة.

١٥ – أضبط بالشكل الكلمات التي تحتاج في نطقها إليه؛ دفعًا لإيهام معناها، أو التباسها بسواها.

١٦ – أعزو الأقوال في الحواشي إلى أصحابها، موثقةً النصوص من المصادر والمراجع كما يلي: اكتفي بذكر اسم المصدر أو المرجع، مقرونًا بذكر اسم مؤلفه في أول مرة، ثُمَّ رقم الجزء والصفحة، وذلك تجنبًا للتكرار؛ حيث إني أورده في فهرس المصادر مقرونًا بذكر جميع بياناته، وقد أذكره باسمه المعروف، أو مضافًا لصاحبه على ما هو مشهور. كما أقدِّم على اسم المصدر كلمة (ينظر) إن كان الكلام المذكور لي لفظًا دون معناه. كما أُعقِّبه بتعبير (بتصرف، أو بتصرف يسير) إذا قمت بالتصرُّف فيه حذفًا، أو تبديلًا، أو تقديمًا، أو تأخيرًا.. وغير ذلك من أوجه التصرُّفِ المقررة.

وبعد، فما كان من توفيق فمن الرحمن ﷻ، وما كان من خطأٍ، أو سهوٍ، أو زللٍ، أو نسيان؛ فمن نفسي، وأسأله ﷻ: أن يرزقني الإخلاص في سائر أموري، وأحوالي، وأن ينفعني به في الدنيا، والآخرة، وينفع به والدي الحبيب– رحمه الله تعالى–، ووالدتي الغالية– بارك الله تعالى في عمرها–، وأخي وأخواتي الأعزاء، وشيوخي وأساتذتي الفضلاء، وينفع به كاتبه، وقارئه، وكلَّ ناظر فيه، ومستفيد منه؛ إنه ﷻ ولي ذلك، والقادر عليه، وهو ﷻ حسبي ونعم الوكيل. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّد ﷺ، وعلى آله وصحبه ﷺ، ومَنِ اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

التعريف بسورة الحجرات

قبل الشروع في تناول القضايا التي تسوء النفس البشرية، وتعكر صفو الأخوة الإيمانية- يطيب للنفس تقديم بطاقة تعريفية بسورة الحجرات؛ ليَتَسَنَّى معرفة حقيقة اسمها، وتتجلى طبيعتها، وسمتها التعبيرية، ووقت نزولها، وعدد آياتها، ومقصدها، وعلاقتها بما قبلها، وهدفها، وأهم أغراضها. وهذا ما تُعْنَى ببيانه المسائل التالية:

المسألة الأولى: اسم السورة، ووجه تحقيقه:

تسمى بسورة الحجرات، وقد التُمِسَ سبب هذه التسمية شاخصةً في ذكر هذه المفردة في ثناياها.

وفي تلك المناسبة قال الإمام ابن عاشور: " سميت في جميع المصاحف، وكتب السنة، والتفسير: سورة الحجرات، وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها: أنها ذكر فيها لفظ (الحجرات) " [(١)].

قلت: وإطلاق هذا الاسم عليها أمرٌ توقيفيٌ، لكن البحث عن حيثيته في ظلِّ ذكر تلك المفردة في ثنايا نظمها، أمر لا اعتراض عليه، لكنه ليس بمتعين؛ إذ إنه سطحي الدلالة، ولا يفسر سببية تعينها دون سائر مفردات السورة الكريمة، ولا يعدو كونه سببًا ظاهرًا يَتَسَنَّى قبوله عند العوام. أما المتخصصون، فلا تلج سببيته لأذهانهم، ولا تقنع به عقولهم؛ فلا يقفون عند هذا الحدِّ من المناسبة، سيما إذا كانت التسمية صادرة من الله ﷻ، ومن ثَمَّ فينبغي البحث عن دقائقها، والكشف عن أسرارها؛ انطلاقًا من معين الاعتراف بالحكمة الإلهية، وبديع الخبرة الربانية؛ إذ إنه ما تقنع به النفس، ويلج في القلب، ويستقر في العقل: أن الأسماء التي يطلقها الله ﷻ لها وجه بديع، وحكمة جليلة، وحيثية مؤكدة، وحقيقة واقعية [(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي: ٢٦/ ٢١٣.

(٢) ومثال ذلك: أن الله تعالى قد سمى سيدنا يحيى عليه السلام بهذا الاسم؛ ومن ثَمَّ كان لا بد أن يتحقق به معنى الحياة. وفي هذا الشأن قال الشيخ الشعراوي: " تسمية الله تعالى غير تسمية البشر؛ فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم (يحيى)؛ فقد فعلوا ذلك من باب الفأل الحسن في أن يعيش الابن، لكن الحق ﷻ حين يسمي اسماء؛ فقد سماه (يحيى)؛ ليحيا بالفعل، ويبلغ سن الرشد، ثم لا يأتي الموت، لذلك؛ قُتِل يحيى، وصار شهيدا، والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موتٌ أبدًا. وهذا عكس تسمية البشر". تفسير الشعراوي= الخواطر، للشيخ مُحَمَّد متولي الشعراوي ١١/ ٦٥٦٤.

ومن هذا المنطلق فإن تسمية تلك السورة الكريمة بالحجرات لابدَّ أن يكون لها شأن بياني بديع، ووجه إعجازي بليغ، به يتصوَّر صدق الاسم على حقيقة مسماه، وكشفه عن قضاياه، واستيعابه لموضوعات نظمه، وفرائد وأساليب مبناه.

هذا، وبتأمُّل آياتها تتأكد تلك الحقيقة، **ووجهه**: أنه لَمَّا كانت السمة التعبيرية، والطبيعة الموضوعية في السورة، تتمثل في شيوع المنهيات، وتوجيه الخلق إلى عدم اقترافها، ومعالجة ما يستجد على المجتمع المسلم من قضايا.. إلخ- لَمَّا كان الأمر كذلك؛ ناسبها اسم الحجرات؛ للإيذان بأن موضوعها الأساس هو المنهيات، ولفت النظر إلى ما جاء منها في نظمها، مع تمهيد النفوس إلى قبولها، والعمل بمقتضاها؛ إذ إن معنى الحجر يدور فلكه حول مدلولات: الامتناع، والابتعاد، والاعتزال.. إلخ، مع تحقق وجه المصلحة فيه.

ومما يكشف عن حيثية تلك الحقيقة، ويتظاهر على تشييدها، ويعد برهانًا على وقوعها: براعة الاستهلال في صدرها، قال الحق ﷻ: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ)** [الحجرات: ١]؛ فقد بدأت أولى موضوعاتها بالنهي، والذي يؤذن بحرمة المنهي. ولا ريب أن التصدير به فيه إشعار بالمقصود الأول منها، والغرض الأساس من ثنايا نظمها.

وفي تلك المناسبة قيل: " تتحقق براعة الاستهلال بالبدء بما يكون فيه إلماح إلى المقصود الأول من النص الأدبي، وإبداع يجذب الانتباه، ويأسر المتلقي سامعًا أو قارئًا، مع حسن سبك، وعذوبة لفظ، وصحة معنى.. فإذا لم يكن في البدء إلماح إلى المقصود الأول الذي قد يخص بعنوان (براعة الاستهلال) فلا أقل من مراعاة الصفات الأخرى " [(١)]. **وقيل**: " أحسن الابتداءات هو ما ناسب الغرض الذي قصد إليه الشاعر بقصيدته، والمعنى الذي تضمنته هذه القصيدة، ويسمى: (براعة الاستهلال) " [(٢)].

قلت: ولاستجلاء حيثيات تلك الحقيقة يتعين تحقيق اسم السورة في ضوء لغة القرآن، واستعمالات لسان البيان.

(١) البلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني: ٢/ ٥٥٩ بتصرف.

(٢) البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع، لـ أ.د/ حسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناجيُ: صـ ٢٧٩.

فقال الخليل: " الحِجْرُ: حطيم مكّة، وهو المَدارُ بالبيت كأنّه حُجْرَةٌ. والحِجْر والحُجْر لغتان: وهو الحرام، وكان الرجل يَلقَى غيره في الأشهر الحُرُم؛ فيقول: حِجْرا مَحجُورًا، أيْ: حَرامٌ مُحرَّم عليك في هذا الشّهر فلا يبدؤهُ بشَرّ.. والمُحَجَّر: المُحَرَّم. والمَحْجِرُ: حيثُ يَقَعُ عليه النِقابُ من الوَجْه. والحَجْر: أن تحجُرَ على إنسانٍ مالَه فتَمنَعَه أن يُفسدَه. والحَجْر: قد يكون مصدرًا للحُجرة التي يَحتَجرُها الرجل، وحِجارُها: حائطُها المحيطُ بها. والحاجرِ من مَسيل الماء، ومَنابِت العُشْب: ما استَدارَ به سَنَدٌ أو نَهْرٌ مُرتفع، وجمعُه حُجْران. والحَجْرة: ناحيةُ كلِّ موضع قريبًا منه. وحَجْرتا العَسكر: جانِباه من المَيْمَنةِ والميْسَرة " [1]. **وقال الأزهري**: " الحِجْرُ: اللُّبُّ والعَقْل. وأصْلُ الحِجْرِ في اللُّغة: مَا حَجَرْتَ عَلَيْهِ، أَي: منعتَه من أَن يوصَلَ إِلَيْهِ، وكل مَا مَنَعْتَ مِنْهُ فقد حَجَرْت عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ حَجْرُ الْحُكَّام على الأَيْتَام: مَنْعُهم. وَكَذَلِكَ الحُجْرة الَّتِي يَنْزِلُها النَّاس، وَهُوَ مَا حَوَّطُوا عَلَيْهِ. وَيُقَال: فلَان حَجْر فلانٍ، أَي: فِي كَنَفَهِ، ومَنَعَتِه، ومَنْعِه، كُله وَاحِد. المحاجِرُ. الحدائق، وَاحِدهَا مَحْجِر. وَيُقَال: تَحَجَّرَ عَلَيَّ مَا وسَّعَهُ الله، أَي: حَرَّمه، وضَيَّقه.. ومَحْجِرُ القَيْل: من أَقْيَال اليَمَنَ: حَوْزَتُه وناحيته الَّتِي لَا يدْخل عَلَيْهِ فِيهَا غَيره. وَتجمع الحُجْرة حُجْرات وحُجُراتٍ وحُجَراتِ لُغَات كلهَا. ويُقَال لِلرَّجل إِذا كثُر مَاله وعدده: قد انتشرت حَجْرَتُه " [2].

وقال الجوهري: " الحجرة: حظيرة الإبل، ومنه حُجرة الدار. تقول: احْتَجَرْتُ حجرةً، أي: اتخذتها. والحاجِرُ والحاجورُ: ما يُمسك الماء من شَفَة الوادي، ويحيط به. وهو فاعولٌ من الحَجْرِ، وهو المنع. وجمع الحاجر حجران. والمَحْجَرُ بالفتح: ما حول القرية. ويقال: حَجَّرَ الْقَمَر: اسْتَدَارَ بِخَط دَقِيق من غير أَن يغلظ، وكذلك إذا صارت حولَه دارةٌ في الغَيْم. والتَحْجيرُ- أيضًا-: أن تَسِمَ حول عَينِ البعير بميسمٍ مستدير. ومحجر بالتشديد: اسم موضع " [3].

وقال ابن فارس مؤصّلًا: " (حَجَرَ): (الْحَاءُ)، وَ(الْجِيمُ)، وَ(الرَّاءُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ الْمَنْعُ، وَالْإِحَاطَةُ عَلَى الشَّيْءِ. فَالْحَجْرُ: حَجْرُ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ تُكْسَرُ حَاؤُهُ. وَيُقَالُ: حَجَرَ الْحَاكِمُ عَلَى السَّفِيهِ حَجْرًا، وَذَلِكَ مَنْعُهُ إِيَّاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ. وَأَحْسِبُ أَنَّ الْبَابَ كُلَّهُ مَحْمُولٌ عَلَيْهِ، وَمَأْخُوذٌ

(١) العين، للخليل بن أحمد (حجر): ٣/ ٧٤ بتصرف.

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري، (حجر): ٤/ ٨١ – ٨٣ بتصرف.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (حجر): ٢/ ٦٢٣ وما بعدها بعدها بتصرف.

مِنْهُ؛ لِشِدَّتِهِ، وَصَلَابَتِهِ "[١].

وقال ابن سيده: " الحجَرُ: الصَّخْرَة، وَالْجمع أحجارٌ. وَأَرْض حَجِرَةٌ وحَجيرَةٌ ومُتَحَجِّرَةٌ: كَثِيرَة الحِجارَةِ. والحِجْرُ والحَجْرُ والحُجْرُ والْمَحْجَرُ، كل ذَلِك الْحَرَام. وحِجْرُ الْإِنْسَان، وحَجْرُه وحُجْرُهُ: حصنه. والحَجْرُ، الْمَنْع، حَجَرَ عَلَيْهِ يَحْجُرُ حَجْرًا وحُجْرًا وحُجْرَانًا وحِجْرانًا: منع مِنْهُ. وَلَا حُجْرَ عَنهُ، أَي: لَا دفع. والحُجْرَةُ من الْبيُوت: مَعْرُوفَة؛ لمنعها المَال. والحِجارُ: حائطها. واسْتَحْجَرَ الْقَوْم واحْتَجَرُوا: اتَّخذُوا حُجْرَةً. والحَجْرَةُ والحَجْرُ، جَمِيعًا: النَّاحِيَة. وَقعد حَجْرَةً وحُجْرَةً، أَي: نَاحيَة. والحُجُرُ: مَا يُحِيطُ بالظُّفر مِنَ اللَّحْمِ.. ومَحْجِرُ الْعين: مَا دَار بهَا وبدا من البرقع من جَمِيع الْعين. وَقِيلَ: هُوَ مَا يَظْهَرُ مِنْ نِقاب المرأَة وَعِمَامَةِ الرَّجُلِ إِذا اعْتَمَّ. وَقِيلَ: هُوَ مَا دَارَ بِالْعَيْنِ مِنَ الْعَظْمِ الَّذِي فِي أَسفل الْجُفْنِ، كُلُّ ذَلِكَ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا، وَكَسْرِ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا. وحَجَّرَ عين الدَّابَّة، وحولها: حلق لداء يُصِيبهَا. والحاجرُ، منبت الرمث ومجتمعه ومستداره [٢]. والحاجِرُ- أَيْضًا-: الْجدر الَّذِي يمسك المَاء بَين الدبار، لاستدارته. والحِجْرُ: الْعَقْلُ وَاللُّبُّ؛ لإمساكه، وَمَنْعِهِ، وإِحاطته بِالتَّمْيِيزِ. وحِجْرُ الإِنسان وحَجْرُهُ: مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ ثَوْبِهِ. وحِجْرُ الرَّجُلِ والمرأَة وحَجْرُهما: مَتَاعُهُمَا، وَالْفَتْح أَعلَى. ونَشَأَ فُلَانٌ فِي حَجْرِ فُلَانٍ وحِجْرِه، أَي: حِفْظِهِ، وسِتْرِه " [٣].

وذكر ابن منظور: " (حجر): الحَجَرُ: الصَّخْرَةُ. ويُقَالُ: رُمِي فُلانٌ بِحَجَرِ الأَرض إِذا رُمِيَ بِدَاهِيَةٍ مِنَ الرِّجَالِ، يقال: قَدْ رُميت بِحَجر الأَرض، أَي: بِدَاهِيَةٍ عَظِيمَةٍ تَثْبُتُ ثبوتَ الحَجَرِ فِي الأَرض. قَالَ سِيبَوَيْهِ [٤]: وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ أَتفعل كَذَا وَكَذَا يَا فُلَانُ؟ فَيَقُولُ: حِجْرًا حُجْرًا، أَي: سِتْرًا وَبَرَاءَةً مِنْ هَذَا الأَمر، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلى مَعْنَى التَّحْرِيمِ وَالْحُرْمَةِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ عِنْدَ الأَمر تُنْكِرُهُ: حُجْرًا لَهُ، بِالضَّمِّ، أَي: دَفْعًا. والْحُجَيْرَةُ: تَصْغِيرُ الحُجْرَةِ، وَهِيَ الْمَوْضِعُ الْمُنْفَرِدُ. والْحِجَارُ جَمْعُ حِجْرٍ، بِالْكَسْرِ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (حجر): ٢ / ١٣٨ بتصرف.

(٢) قال ابن فارس: " الرِّمْثُ: مَرْعًى مِنْ مَرَاعِي الْإِبِلِ، وَذَلِكَ لِانْضِمَامِ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ. وَالرَّمَثُ- أَيْضًا-: بَقِيَّةُ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَجَمِّعٌ ". مقاييس اللغة (رمث): ٢/ ٤٣٧ بتصرف.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (حجر): ٣/ ٦٥ – ٦٨ بتصرف.

(٤) ونص كلامه: " قوله جلّ ثناؤه: ﴿**وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي: حرامًا محرمًا، يريد به: البراءةَ من الأمر، وبيعَّدُ عن نفسه أمرًا، فكأنه قال: أُحَرِّمُ ذلك حَرامًا محرَّمًا. ومثل ذلك: أن يقول الرجلُ للرجل: أتَفعل كذا وكذا؟ فيقولُ: حِجرًا، أي: سِتْرًا، وبراءةً من هذا". الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبي بشر، الملقب بسيبويه: ١/ ٣٢٦ بتصرف.

أَو مِنَ الحُجْرَةِ وَهِيَ حَظِيرَةُ الإِبل وحُجْرَةُ الدَّارِ؛ لأَنه يَحْجُر الإِنسان النَّائِمَ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الْوُقُوعِ وَالسُّقُوطِ. ويُقَالُ: حَجَرْتُ الأَرضَ، واحْتَجَرْتُها: إِذا ضَرَبْتَ عَلَيْهَا مَنَارًا تَمْنَعُهَا بِهِ عَنْ غَيْرِكَ " [1].

التعليق:

قلت: بعد تحقيق مادة (ح ج ر) في ضو لغتها، واستقراء واستعمالات لسانها يتبين أنها قد جالت في إطار المعاني التالية: المدار بالبيت، الحرام، المغطى، المنع من الفساد، الحائط المحيط، ما استدار بمسيل الماء ومنابت العشب من السند والنهر المرتفع، ناحية كل موضع، جانبي الشيء، اللب والعقل، المنع من الوصول إلى الشيء، الإحاطة على الشيء، الكنف، المنعة، الحدائق، التحريم، التضييق، الحوزة والناحية المخصوصة، المال، العدد، حضيرة الإبل، اتخاذ الحجرة، ما يمسك الماء من شفة الوادي، ما حول القرية، ما استدار حول القمر من خط دقيق من غير أن يغلظ، ما استدار حوله من دارة في الغيم، اسم موضع، الصخرة، الحصن، الدفع، ما يحيط بالظفر من اللحم، داء يصيب عين الدابة ويحيط بها، الجدار الذي يمسك الماء لاستدارته، ما بين يدي الإنسان من ثوبه، المتاع، الحفظ، الستر، الداهية العظيمة التي تثبت ثبوت الحجر في الأرض، البراءة من الأمر، قول تقوله العرب للأمر تنكره (حجرًا له، أي: دفعًا)، الموضع المنفرد، ضرب منار على الأرض.. إلخ.

كما ظهر نمط من تعليلاتهم في استعمالات المادة، **فمنها**: الحجرة من البيوت، لمنعها، وإحاطتها. **ومنها**: العقل واللب؛ لإمساكه، ومنعه، وإحاطته بالتمييز. ومنها: الحجر والحجرة؛ لكونه يحجر النائم ويمنعه من السقوط والوقوع. **ومنها**: حجر الأرض؛ لأنه قد ضرب عليها منار تمنع به من غيره. والباب كله محمول على المنع والإحاطة؛ للشدة، والصلابة.

ذلك، وبالنظر في هذه المعاني، وتلك الاستعمالات، يَتَسَنَّى تصنيفها إلى ما يميط اللثام عن حقيقة كلمتها، ويبين أسباب وسمها بمادتها، وينطق بحيثيات ذمها، ويؤذن ببواعث الإذعان لمقتضاها، وارتسام صور الحفظ منها، ويحذر من اقتراف المنهيات، ويحث على الابتعاد عنها، وامتثال مضمونها، ويكشف عن اشتهاء النفوس لها، ويقيم الحجة بارتفاع الأعذار في مقارفتها، وينبئ بقبح مآله.. وهذا لفٌّ مطوي، يَتَأَتَّى نشره فيما يلي:

(١) لسان العرب، لابن منظور (حجر): ٤/ ١٦٥ – ١٧١ بتصرف.

برهان إلهية التسمية في ضوء توظيف حقيقة الاسم، وبيان صدقه على مسماه:

أمَّا الكشف عن المسمى: فيتم ببيان كنهه، وارتسام حقيقته، فهو الأمر الحرام، الممنوع، وقد ورد فيه التحريم صريحًا، والمنع من مقارفته مباشرة، مع الإحاطة بمظاهر التضييق من الوقوع فيه وملابسته مواجهةً. وتمثله معاني: الحرام، التحريم، المنع، والتضييق.

ومما يتبع الكشف عن حقيقته: بيان نطاقه، وإعلان مداه، فهو محدد معلوم، على ما نطقت به مدلولات: الموضع المنفرد، اسم موضع، والناحية المخصوصة، جانب الشيء.. وغيرها؛ إذ إن فيها برهانًا على تحديد المحرمات، ودليلًا على ضيق مدى الممنوعات.

وأمَّا إعلان أسباب وسمه بمادتها: فلكونه خللًا بينًا، وفسادًا ظاهرًا، الأمر الذي جعله ممنوعًا، مدفوعًا، محرمًا. وعليه تتظاهر مدلولات: المنع، الدفع، لاسيما إذا ما ارتبطت مادة المفردة بمتعلق ذلك المنع، ألا وهو المنع من الخلل، والحبس تحرزًا عن الفساد، وإنما يتصور ذلك في صورة منع الإبل من الانتشار بحبسها داخل الحظيرة، ومنع المرء من سائر صور الاعتداء بحفظه داخل حجرته، ومنع الماء من السيل الذي يخرب الحدائق، ومنع السفيه من التصرف في ماله... إلخ.

وأمَّا النطق بحيثيات الذم: فتمثله مدلولات مادية معبرة، واستعمالات لسانية موحية، ومنها: داء يصيب عين الدابة ويحيط بها، والداهية العظيمة التي تثبت ثبوت الحجر في الأرض، وقول تقوله العرب للأمر تنكره (حجرًا له، أي: دفعًا)، والصخرة؛ لكونه يوحي بانقطاع النفع من وجه خفي؛ ومن ثَمَّ فيتصور الوقوع في المحرمات في صورة الوقوع في داء يصيب عين صاحبه، ويحدق بها، كما يتمثل في مثال التلبس بداهية عظيمة لها من الثبوت ما للحجر في الأرض، كما يتبين سوؤه في ظلال انقطاع نفعه، وارتفاع ثمره، فضلًا عما يورثه من الغلظ والصلابة.

وأمَّا الإيذان ببواعث الإذعان لمقتضاها، وارتسام صور الحفظ منها: فإنه يتحقق إذا ما ترك عنان العقل، وتحرر من إسار اللفظ؛ ليعلم أن المحرمات ممثلةً في المنهيات الواردة في السورة المباركة، إنما شرعت لأجل الحفظ، وتحقق الستر، فهي بمثابة المدار بالبيت؛ تحقيقًا لحفظه، والمدار بالماء منعًا من فيضانه وعطب مآله. والمنار المضروب على الأرض منعًا من الاستيلاء عليها، والحائط بالشيء تحقيقًا لستره، ونفعه، فهي كالحوائط للبيوت والتي إذا ما أزيلت بارتكاب مضمون النواهي زال معها معنى البيوت وسترها، وحفظ مَنْ بداخلها، والذي كان قبل ذلك مأمونًا، مغطًى، محفوظًا، ممنوعًا من أي اعتداء.

ومما يدعمه: أن مادة البنية القرآنية قد تعلقت بمناط الإحاطة، وأعلنت أهميتها، وخير ما يمثلها مدلولات: ما يحيط بالظفر من اللحم، ما يمسك الماء من شفة الوادي، ما حول القرية، ما استدار حول القمر من خط دقيق من غير أن يغلظ، ما استدار حوله من دارة في الغيم، الجدار الذي يمسك الماء لاستدارته، ما استدار بمسيل الماء ومنابت العشب من السند والنهر المرتفع.. إلخ؛ إذ إنها تتظاهر في تحقيق معاني: الستر، والحفظ، والنفع.. وغيرها، كما تؤدي إلى ارتفاع معاني: الخلل، والفساد، والضر.. وغيرها.

وممَّا يتظاهر على تحقيقه– أيضًا–: أنَّه (يُقَال لِلرَّجل إذا كثُر مَاله وعدده: قد انتشرت حَجْرَتُه)؛ إذ فيه دليل على أنَّ الحجر يحمل معنى الاحتياج، ويتعلَّق بما هو نفع محض، ومرغوب للنفس؛ لحسن مآله، وشديد التنافس في تحصيله؛ فكان من اللائق بهم الامتثال لمقتضاه، ومن الأولى الخضوع والإذعان لمستدعاه.

وأمَّا التحذير من اقتراف المنهيات، والحث على الابتعاد عنها، وامتثال مضمونها: فيتصدرها معاني: الكنف، والمنعة، والدفع، والحفظ، والستر، والحصن، والبراءة من الأمر.. وغيرها؛ لكونها

وأمَّا الكشف عن اشتهائها: فيرتسمه معاني: الحدائق، والمتاع، والمال، والعدد، وما بين يدي الإنسان من ثوبه.. إلخ؛ لكونها توحي بقرب تلك المحرمات من الإنسان من وجه، كما تشعر بكونها من مرغوبات النفس، متحدثةً بحيثيات اشتهائها من وجه آخر.

وأمَّا إقامة الحجة، وقطع المعذرة: فتحاكيه مدلولات كثيرة، أبرزها: ضرب منار على الأرض منعًا للغير منها؛ لأن فيه إيحاءً بأن تلك المحرمات قد حددت، ورفع علم الإنذار منها، وأحيطت بما يمنع من اقترابها، ويؤذن بخطر مقاربتها.. إلخ.

كما يومئ إلى أنها قد أحدقت بدعائم حجبها، وركائز المنع منها، وإنما يرجع ذلك لضررها المحقق في ذاتها، وخطرها الكامن في نفسها، ويستظهره أن مما تمثلته مطاويها: قول العرب للأمر تنكره: (حُجْرًا لَهُ)، بمعنى: دفعًا؛ مما يقرر أن كل ما كان منتظمًا في إطار مادة (ح ج ر) فهو منكر، ومما تأباه النفوس الزكية، وتند عنه الفطر النقية، وتعاديه العقول الذكية.

كما يعود ذلك المعنى إلى ما استقر في الإنسان من دعائم تحول بينه وبينها، ومنها: عقله ولبه، والذي يحفظه من الوقوع فيها، لاسيما وقد كان أحد أفراد منظومة مادة (ح ج ر) الدلالية، وفرد من استعمالاتها اللغوية، وكأن الحجرات والتي تحمل معنى المنهيات والممنوعات، قد انطوت على الآلة التي

بها تعلم وتدرك، وعنها تمنع وتصد وتحجب، وبها تنذر وتزجر، وعليها تذم، وتتوعد؛ لكونه يمسك عن ذميم القول وفعله، ويمنع من مقارفته، ويتعرف على مواطن النفع والصلاح، وموارد الضر والفساد؛ لطبعه بالتمييز بين المتقابلات.

وأمَّا الإنباء بقبح مآله: فقد تحقق في طيات المادة منطوقًا ومفهومًا. **أمَّا المنطوق:** فما توفر في معاني الداء يصيب عين الدابة، ويحيط بها، والتضييق، والبراءة من الأمر، وقول تقوله العرب للأمر تنكره، والداهية العظيمة، والصخرة.. إلخ؛ لكونها تكشف بلفظها نطقًا عن أمر تأباه النفوس، وترغب عن التلبس به، وتمجه العقول، وتنأى عن مقاربته.

وأمَّا المفهوم: فقد تحقق في مطاوٍ عديدة، منها: المنع من الفساد، وما يمسك الماء من شفة الوادي، وما يحيط بالظفر من اللحم، والجدار الذي يمسك الماء لاستدارته.. إلخ؛ مما يشير إلى قبحها في صورة نقيضها، فإذا كانت المنهيات تمنع من الفساد، فارتكابها حتمًا يحققه، وإذا كان البعد عنها بمثابة الجدار الذي يمسك الماء، واللحم المحيط بالظفر، فللبشر تخيل وقع ارتكابها في صورة هدم ذلك الجدار، وإزالة ما يحيط بالظفر، ويحميه.

ومنها– أيضًا–: مدلول: (الحجرة من البيوت)؛ لأنه بزوالها، يزول دورها من المنع والإحاطة. ومدلول: العقل واللب؛ إذ إنه بارتفاعه ترتفع وظيفته من الإمساك، والمنع، والإحاطة بالتمييز. ومدلول: الحجر والحجرة؛ إذ بانتفائها ينتفي وقعها من حجر النائم، ومنعه من السقوط، وحفظه من الوقوع. ومدلول: حجر الأرض، وهو المنار المضروب عليها؛ لأنه بزواله يزول معنى حفظها، مما قد يؤدي إلى الاستيلاء عليها، وغصبها.

وكأنه بارتفاع تلك المعاني صار عرضة لكل مصاب، ومحلًا لكل اعتداء، كيف لا وقد أزال ستر الله ﷻ، وخرج من حصنه ﷺ، وفسق عن أمره، وتجاوز تشريعه؟!

ومن هنا كان باب الكلمة كله محمول على المنع والإحاطة؛ للشدة، والصلابة؛ لأن الأمور المنهي عنها في نفسها عظام، وشئون جسام، له من وخيم الآثار ما غاية وراءه، كما أن لها من قبح المآل ما لا منتهى بعده.

ومما لا ريب فيه: أنه يتقرر مما قد تقدم أن كل ما نهى الله ﷻ عنه، هو حصن للبشر من الأخطار، وحفظ لهم من الآثام، ومنعة من الشرور، وستر لهم مما قد يضر بهم، وحفظ لهم من كل خلل وفساد قد يحدق بهم بداع من نفوسهم.

ومن هنا يتأكد أن كل تشريعٍ إلهيٍّ إنما يتضمن الكشف عن رحمة المشرع ﷻ، ويرتسم أنماط حفظه، ويصور بدائع عنايته، ويعلن مظاهر رعايته، وخير ما يضاهيه هنا ويمثله مدلولات: الكنف، والمنعة، والحفظ، والستر.. وما في معناها.

كما يحاكيه مدلولا: الحجرة، والحدائق؛ لأنه يشعر بكون المرء بمقتضى التشريع كأنه داخل بيته، وفي حديقته، وقد سورا بما يحفظهما، ويمنع خللهما، فإذا خرج منهما تعرض للويلات، وتلبس بالمنغصات، وتحقق له تبعًا لذلك سوء الأحوال، وقبح المآلات.

ومما يدعم ذلك مدلولا: (ما استدار حول القمر من خط دقيق من غير أن يغلظ، وما استدار حوله من دارة في الغيم)؛ إذ إن فيهما تصويرًا بديعًا، حتى لكأن المنهيات قد أحيطت بما هو جميل حسب المشاهدة، وأحدقت بمظان النور، فإذا تَمَّ اقترافها كان ذلك بمثابة الانتقال من موقع النور إلى مورد الغيم والظلام، وهذا حال الاتباع والمخالفة أبدًا.

ذلك، وإذا ما نُزِّلَ هذا التوظيف على ساحة النظم القرآني، في ميدان السورة الكريمة؛ يتأكد أن موضوعها الأساس هو المنهيات، كما يتجلى أن كل نهي ورد في نظمها إنما قد سيق في قوالب لفظية، ضمن أساليب كلامية، بما يكشف عن حقيقة تحريمه، ويبين أسباب منعه، وينبئ عن علة الحجر منه، وينطق بحيثية ذمه، وينفر عن مقاربته، ويحثُّ على الامتثال لمقتضاه، ويدفع إلى الإتيان بمضمونه، والحفظ من مخالفته، ويحذر أشد التحذير من الوقوع فيه، لاسيما وقد توفر فيه ذاتًا ما يصد عنه، وقد حُفَّ سياقًا بما يمنع منه، وأحدق بما يذمه، ويتوعد عليه، ويبرز قبح مآله، ويرتسم سوء حاله، كما يقيم الحجة بضرورة اجتنابه، ويقطع الأعذار عن مقارفتها.

ومثال ذلك: النهي عن التقدم بين يدي الله ﷻ، ورسوله ﷺ، ورفع الصوت فوق صوته ﷺ، والجهر له بالقول، والنهي عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، والنهي عن التجسس والاغتياب، والنهي عن الامتنان بالإسلام، فكلها يتوفر فيها ما توفر في معنى مادة (ح ج ر) على نحو ما قد تبين سلفًا.

وجدير بالذكر: أن تلك المنهيات قد جاء في صحبتها من الأساليب الكلامية من الأمر وغيره، ومن القضايا السياقية، ما يقرر مضمونها، ويمهد لامتثال مقتضاها، ويحذر أشد التحذير من التلبس بها.

وفي هذه المناسبة قال الإمام الألوسي: " من باب الإشارة في بعض الآية: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا**

تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...) إلخ إشارة إلى لزوم العمل بالشرع، ورعاية الأدب.. إلخ " (١).

قلت: ولعل تعبيره باللزوم يؤول إلى أن ما جاء في نظمها إنما هو محرم، ينبغي تجنبه، وهو في ذاته مكروه، ومنكر، ومذموم فطرةً، وعقلًا، ونفسًا، وعرفًا، وشرعًا.

وبناء على ما قد تبين: يسعني تقرير أنه قد أطلق الاسم على مسماه المناسب، والمساوي له، وجاء صادقًا على حقيقة مسماه، مرتسمًا صوره، محذرًا منه، مبشِّعًا من مآله، متوعدًا عليه.. إلخ. ومن هذه الحيثية يَتَسَنَّى فهم كلام الإمام البقاعي في هذه المناسبة؛ **حيث قال:** " حاصل مقصودها: مراقبة النبي ﷺ في الأدب معه، واسمها الحجرات واضح الدلالة على ذلك، بما دلَّت عليه آياته " (٢).

قلت: فألمح الإمام إلى وجه التناسب بين الاسم، والموضوعات التي دلَّت آيات السورة عليها، وكأنها سورة المنهيات، والممنوعات، وهذا من باب التغليب من وجهٍ، ومن منطلق التحذير منها، والعناية بإبراز بشاعتها، وإحداق خطرها حال التلبس بها من وجهٍ ثانٍ، ومن منبع الدعوة إلى ضرورة اجتنابها، وحتمية التحرز منها من وجه ثالثٍ.

المسألة الثانية: وقت نزول السورة، ومكانها، وعدد آياتها:

سورة الحجرات من السور المدنية الخالصة، وعدد آياتها ثمان عشرة آية، وكان نزولها بعد سورة المجادلة (٣).

قال ابن عطية: " هي مدنية بإجماعٍ من أهل التأويل ﷺ " (٤). **وقال الإمام ابن عاشور:** "هي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة، وقبل سورة التحريم، وكان نزول هذه السورة سنة تسع، وعدَّ جميع العادين آيها: ثمان عشرة آية " (٥).

المسألة الثالثة: مقصد السورة:

قد صرح الإمام البقاعي بمقصدها قائلا: " مقصودها: الإرشاد إلى مكارم الأخلاق؛ بتوقير النبي ﷺ

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني= تفسير الألوسي، لشهاب الدين الألوسي: ١٣/ ٣٢٠ بتصرف يسير.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي: ١٨ / ٣٤٩ وما بعدها بتصرف.

(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري: ٤ / ٣٤٩. التفسير الكبير، للرازي: ٢٨ / ٩١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود: ٨ / ١١٥.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: ٥ / ١٤٤ بتصرف يسير.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢١٣ بتصرف.

بالأدب معه في نفسه، وفي أمته، وحفظ ذلك، من إجلاله بالظاهر؛ ليكون دليلا على الباطن؛ فيسمى إيمانا، كما أن الإيمان بالله تعالى يشترط فيه فعل الأعمال الظاهرة، والإذعان لفعلها بشرائطها، وأركانها، وحدودها؛ لتكون بينة على الباطن، وحجة شاهدة له " [1].

المسألة الرابعة: مناسبة السورة لما قبلها:

يتضح مساق السورة الكريمة، ويتبين إلهية موقعها في ضوء استجلاء علاقتها بما قبلها، والكشف عن وجه مناسبتها؛ فهي وشيجة الصلة بما قبلها، ولها منها حسن الموقع، وجمال المنزل.

قد ذكر الإمام الرازي أظهر أوجه [2] نظمها مع ما قبلها قائلًا: " هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم، راكعين ساجدين، وذكر: أنَّ لهم من الحرمة عنده ﷻ، ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة، ووعدهم بالأجر العظيم؛ فقال في هذه: لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم، وإحباط حسناتكم، و**(لَا تُقَدِّمُواْ)** " [3].

المسألة الخامسة: هدفها، وأهم وأغراضها:

هذا، والذي يبدو على هذه السورة الكريمة، أن **هدفها الأسمى: الإرشاد** على اختلاف مناحيه، وتعدد موضوعاته، وتنوع مقاصده. **وفي هذه المناسبة قال الإمام الرازي:** " هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول ﷺ، أو مع غيرهم من أبناء الجنس، وهم على صنفين؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين، وداخلين في رتبة الطاعة، أو خارجين عنها، وهو الفاسق، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضرًا عندهم، أو غائبا عنهم؛ فهذه خمسة أقسام. **أحدها:** يتعلق بجانب الله ﷻ. **وثانيها:** بجانب الرسول ﷺ. **وثالثها:** بجانب الفساق. **ورابعها:** بالمؤمن الحاضر. **وخامسها:** بالمؤمن الغائب؛ فذكرهم الله تعالى في

(١) نظم الدرر: ١٨ / ٣٤٩ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) فقال: " في بيان حسن الترتيب وجوه (قلت: الصواب: التعبير بأوجه): أحدها: أن في السورة المتقدمة، لما جرى منهم ميل إلى الامتناع، مما أجاز النبي ﷺ، من: الصلح، وترك آية التسمية، والرسالة، وألزمهم كلمة التقوى؛ كان رسول الله ﷺ قال لهم على سبيل العموم: ﴿**لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ [الحجرات: ١]، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى، ورسوله ﷺ. الثاني: هو أن الله تعالى لَمَّا بين محل النبي ﷺ، وعلو درجته، بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين؛ قال: لا تتركوا من احترامه شيئًا: لا بالفعل، ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته ﷺ". مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٩١ بتصرف.

(٣) التفسير الكبير: ٢٨/ ٩١ بتصرف.

هذه السورة خمس مرات: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)**، وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة " [١].

أمَّا أهم أغراضها فقد ألقى الإمام ابن عاشور الضوء عليها قائلًا: " تتعلق أغراضها بحوادث جدت متقاربة، **كانت سببا لنزول ما فيها من أحكام وآداب**، ومنها: تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي ﷺ، ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقا، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم؛ لأنهم إخوة، وما أمر الله تعالى به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم، في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب؛ تقويما لأود [٢] نفوسهم " [٣].

وقال الإمام سيد طنطاوي: " الذي يتدبر هذه السورة الكريمة؛ يراها قد اشتملت على أسمى الآداب، وأبلغ العظات، وأحكم الهدايات؛ فنجدها قد رسمت للمؤمنين طريق الحياة السعيدة؛ حيث عرفتهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ﷻ، ونحو نبيهم ﷺ، وبما يجب عليهم نحو أنفسهم، ونحو إخوانهم في العقيدة، ونحو أفراد المجتمع الإسلامي بصفة عامة. وقد وضحت لهم كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر، من شأنه أن يغرس في النفوس، الخشوع والطاعة لله رب العالمين " [٤].

قلت: فتجلى مما سبق: بعض الحقائق التي تميط اللثام عن جو السورة الكريمة، وما انتظمته من موضوعات، وعالجته من مستجدات، مبينة أسمى مقاصدها، وأبرز أهدافها.

---

(١) تفسير الرا زي: ٢٨/ ٩٧ بتصرف.

(٢) قال ابن فارس: " (أَوَدَ): (الْهَمْزَةُ)، وَ(الْوَاوُ)، وَ(الدَّالُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ: الْعَطْفُ، وَالِانْثِنَاءُ. أُدْتُ الشَّيْءَ: عَطَفْتُهُ. وَتَأَوَّدَ النَّبْتُ، مِثْلُ: تَعَطَّفَ، وَتَعَوَّجَ ". معجم مقاييس اللغة (أود): ١/ ١٥٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٣ بتصرف.

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للإمام الأكبر مُحَمَّد سيد طنطاوي: ١٣/ ٢٩٥ وما بعدها بتصرف.

التوطئة

أسباب القتل المعنوي في نظم الآية إجمالًا

قال الحق ﷻ: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)** [الحجرات: ١١].

نظمت الآية الكريمة في عقدها أسباب القتل المعنوي، والدمغ النفسي، وقبل الشروع في تفصيلها ينبغي الكشف عن وجه مناسبتها، وسبب نزولها، وهذا ما تحتليه المسألتان التاليتان.

المسألة الأولى: مناسبة الآية لما قبلها:

قال الإمام الرازي مبينا وجه النظم: " قد بيَّنَّا أن السورة للإرشاد بعد إرشاد، فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع النبي ﷺ، ومع مَنْ يخالفهما، ويعصيهما، وهو الفاسق؛ بَيَّنَ ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، وقد ذكرنا: أن المؤمن إما أن يكون حاضرًا، وإما أن يكون غائبًا، فإن كان حاضرًا؛ فلا ينبغي أن يسخر منه، ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم " (١).

وقال الإمام البقاعي مجليًا وجه المناسبة: " لَمَّا نهى عن الإسراع بالإيقاع، بمجرد سماع ما يوجب النزاع، وختم بما ترجى به الرحمة، وكان ربما كان الخبر الذي أمر ﷻ بتبينه صريحا؛ نهى عن موجبات الشر التي يخبر بها؛ فتكون سببًا للضغائن التي يتسبب عنها الشر؛ فقال على سبيل النتيجة من ذلك، ذاكرًا ما في القسم الرابع من الآداب، والمنافع، من: وجوب ترك أذى المؤمنين في حضورهم، والإزراء بحالهم، **المذهب لسرورهم، الجالب لشرورهم**(٢): **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ...)** الآية " (٣).

قلت: ما ذكره الإمامان إنما يفصح عن سبب التناسب بين نداءات المؤمنين الواردة في السورة الكريمة عمومًا، ولا يلقي الضوء على السياق الخاص بالآية محل الدراسة.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨ / ١٠٧ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) قلت: أومأ الإمام بذا التقدير إلى الأثر النفسي الذي ينجم عن الإساءة المنهي عنها.

(٣) نظم الدرر: ١٨ / ٣٧٤ وما بعدها بتصرف.

وبعد تأمل النظم الكريم، والنظر في قضاياه التي يستهدف الحفاظ عليها؛ تجلى أن الآية الناهية عن أسباب القتل المعنوي، قد بلغت في موقعها من البلاغة والمبالغة ما لا غاية وراءه!

وبيانه: أن الحق ﷻ شرع المنهج القويم في التعامل مع انقسام المجتمع الإيماني، عند اقتتال طائفتين منه، آمرا بالإصلاح بينهما، مبينا جزاء بغي إحداهما على الأخرى، وكيفية مواجهتها، ثم ذيَّل هذا التشريع بقاعدة تبرز معنى الأخوة الإيمانية، وتدعم وحدة الصف المسلم؛ فقال ﷻ: **(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)** [الحجرات: ١٠]، ويعَدُّ هذا الأمر بتمامه منهجا في الحفاظ على النفس البشرية، وناهيا عن قتلها **ماديا**.

وبعد الأمر بما يحفظ على البشر حياتهم؛ حسن تشريع المحافظة على الجانب **النفسي** لهم؛ ليكون التشريع الإلهي قد أحاط الإنسان بما يحفظه: ماديا، ومعنويا، وينهى عن النيل منه ظاهريا، وباطنيا، جسديا، ونفسيا.

قال الإمام ابن عاشور مبينًا وجه التناسب: " لَمَّا اقتضت الأخوة أن تحسن المعاملة بين الأخوين؛ كان ما تقرر من إيجاب معاملة الأخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم؛ فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها؛ لكثرة تفشيها في الجاهلية؛ لهذه المناسبة، وهذا نداء رابع أريد بما بعده: أمر المسلمين بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم " (١).

المسألة الثانية: سبب نزول الآية:

قال الإمام الواحدي مبينا سبب النزول: " قوله ﷻ: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...)** الآية، نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وذلك أنه كان في أذنيه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ؛ أوسعوا له؛ حتى يجلس إلى جنبه، فيسمع ما يقول، فجاء يوما وقد أخذ الناس مجالسهم؛ فجعل يتخطى رقاب الناس، ويقول: تفسحوا، تفسحوا؛ فقال له رجل: قد أصبت مجلسا فاجلس، فجلس ثابت مغضبا، فغمز الرجل؛ فقال: مَنْ هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة؟ وذكر: أمًا كانت له يعير بها في الجاهلية؛ فنكس الرجل رأسه؛ استحياء؛ **فأنزل الله تعالى هذه الآية**. وقوله ﷺ: **(وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ...)** نزلت في امرأتين من

(١) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٤٦.

أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة رضي الله تعالى عنها، وذلك أنها ربطت حقويها بثوب أبيض، وسدلت طرفه خلفها؛ فكانت تجره، فقالت عائشة لحفصة رضي الله تعالى عنهما: انظري إلى ما تجر خلفها، كأنه لسان كلب؛ فهذا كان سخريتها. وقال أنس ﷺ: **نزلت في نساء النبي ﷺ**؛ عيرن أم سلمة ﷺ بالقصر. وقال عكرمة عن ابن عباس ﷺ: إن صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله تعالى عنها، أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن النساء يعيرنني، ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين؛ فقال رسول الله ﷺ: «هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي مُحَمَّد» [(١)]؛ **فأنزل الله تعالى هذه الآية** " [(٢)].

وقال الإمام ابن عطية: " هذه الآيات والتي بعدها نزلت في خلق أهل الجاهلية. وذلك؛ لأنهم كانوا يُجْرِونَ مع الشهوات نفوسهم، لم يقومهم أمر من الله تعالى، ولا نهي؛ فكان الرجل يسطو، ويهمز، ويلمز، وينبز بالألقاب، ويظن الظنون؛ فيتكلم بها، ويغتاب، ويفتخر بنسبه، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس البطالة؛ فنزلت هذه الآية؛ تأديبا لأمة مُحَمَّد ﷺ. وذكر بعض الناس لهذه الآيات: أسبابا. فما قيل: إن هذه الآية: **(لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ)** نزلت بسبب عكرمة ﷺ بن أبي جهل، وذلك؛ أنه كان يمشي بالمدينة مسلما؛ فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة؛ فعز ذلك عليه، وشكاه إلى رسول الله ﷺ. **وقال القاضي أبو مُحَمَّد: والقوي عندي:** أن هذه الآية نزلت؛ تقويما كسائر أمر الشرع، ولو تتبعت الأسباب؛ لكانت أكثر من أن تحصى " [(٣)].

وقال الإمام ابن عاشور مأثورًا: " عن الضحاك: أن المقصود بنو تميم؛ إذ سخروا من: بلال، وعمار، وصهيب ﷺ؛ فيكون لنزول الآية سبب متعلق بالسبب الذي نزلت السورة لأجله، وهذا من السخرية المنهي عنها. ثم ذكر ما رواه الواحدي عن ابن عباس ﷺ، من قصة ثابت بن قيس بن شماس، ثم

---

(١) وأصل هذا الحديث أخرجه الترمذي، عن أنس ﷺ، قال: " بلغ صفية أن حفصة ﷺ، قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيمَ تفخر عليك؟»، ثم قال: «اتقي الله يا حفصة» ". أبواب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ، برقم (٣٨٩٤)، وقال أبو عيسى: " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه"، وصححه الألباني. سنن الترمذي، لأبي عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك: ٧٠٩/٥.

(٢) أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن علي الواحدي: صـ ٣٩٣ بتصرف يسير.

(٣) المحرر الوجيز: ٥ / ١٤٩ بتصرف يسير.

قال: فهذا من اللمز. وروي عن عكرمة: أنها نزلت؛ لَمَّا عيرت بعض أزواج النبي ﷺ أم سلمة رضي الله عنها بالقصر، وهذا من السخرية. وقيل: عيَّر بعضهن صفية رضي الله عنها بأنها يهودية، وهذا من اللمز في عرفهم " [١].

قلت: قد عُنِيَتْ الآية الكريمة بالنهي عن اقتراف أسباب القتل المعنوي، وعوامل الدمغ النفسي ممثلًا في أبشع صوره، وأشهر أسبابه، وأسوأ مظاهره، ابتداءً بالنهي عن السخرية، ثُمَّ اللمز، ثُمَّ التنابز بالألقاب.

وفي هذا الصدد قال الإمام القشيري: " نهى الله تعالى عن: ازدراء الناس، وعن الغيبة، وعن الاستهانة بالحقوق، وعن ترك الاحترام " [٢].

هذا، وارتسم من سبب النزول صور الحادثة التي ورد النهي بصددها، ممثلا في: المعايرة بأم الشخص، أو أبيه، أو الاستهزاء بفعله، وبخلقته، وبنسبته إلى ما يكره... إلخ.

وقد افتتحت الآية بنداء الإيمان؛ للتأكيد على أن المنادى لأجله من مقتضياته، ولوازمه، كما أنه مؤذن بالاهتمام بالغرض، وبكونه مستقلًا غير تابعٍ.

ومن ثَمَّ قال الإمام ابن عاشور: " افتتحت هذه الآيات بإعادة النداء؛ للاهتمام بالغرض؛ فيكون مستقلًا غير تابع. وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مهم من معاملة المسلمين بعضهم لبعض، مما فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها. وهي من إساءة الأقوال، ويقتضي النهي عنها، الأمر بأضدادها. وتلك المنهيات، هي: السخرية، واللمز، والنبز " [٣]. **وفي الآية مباحث، هي على النحو التالي.**

(١) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٤٦ بتصرف.
(٢) لطائف الإشارات= تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري: ٣ / ٤٤٢.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٤٦.

المبحث الأول

النهي عن السخرية

قال تعالى: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ)** [الحجرات: ١١].

قد تضمن سبب النزول ارتسام الحادثة التي جاء النهي ردًّا عليها، إلَّا أنَّ النظم لم يأتِ بالنهي عن مضمون تلك الحادثة، أو صريحها؛ كأن يكون: لا يهزأ، لا يعب، لا يعير... إلخ.

بل آثر في النهي التعبير بمادة (س خ ر)، ولا يكون هذا إلَّا لنكتة تؤديها، وتعجز عنها أيُّ مفردة أخرى، ومن ثَمَّ كان لإيثارها موقعه في النظم، وأثره التفسيري في السياق؛ إذ إنَّ تلك المفردة حملت في مكنونات طياتها ما يفصح عن سبب تمكنها، ويكشف عن بديع بلاغتها، ويجلي وجه إعجازها. وحتى يتم الوقوف على تلك الحقيقة، وما يترتب عليها؛ لابدَّ من تحقيق مادة (س خ ر) في ضوء معطيات لغتها، واستعمالات لسانها؛ ليتبين في ظله مدى السعة التعبيرية لهاتيك المفردة، ويعلن من خلاله: سر اختيارها، وسمو نظمها، وإلهية إطلاقها. وهذا إجمالٌ لفَّا يناط تفصيله نشرًا بالمطالب التالية.

المطلب الأول: حقيقة السخرية في ضوء الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال الخليل: " (سخر): سَخِرَ منه وبه، أي: استهزأ. والسُّخْرِيَّةُ: مصدر في المعنيين جميعًا، وهو السُّخْرِيُّ-أيضا-. والسُّخَرَة: الضُّحَكَةُ. وأما السُّخْرَةُ: فما تَسَخَّرْتَ من خادم ودابة، بلا أجر ولا ثمن. تقول: هم لك سُخْرَةً وسُخْرِيًّا. قال الله ﷻ: **(فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا)** [المؤمنون: ١١٠]، أي: سُخْرِيّة، من تَسَخُّرِ الخَوَل[1] وما سواه، وسخريًا في الاستهزاء. سَخَرَتِ السفن: أطاعت، وجرت، وطاب لها السير. وقد سَخَّرها الله ﷻ لخلقه تَسْخيرًا، وتَسَخَّرتُ دابة لفلان: ركبتها بغير أجر "[2].

وقال ابن فارس: " (سَخِرَ): (السِّينُ)، وَ(الْخَاءُ)، وَ(الرَّاءُ): أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقِيمٌ، يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ، وَاسْتِذْلَالٍ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا: سَخَّرَ اللَّهُ ﷻ الشَّيْءَ، وَذَلِكَ؛ إِذَا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ، وَإِرَادَتِهِ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ

(١) قال الخليل: " الخَوَلُ: ما أعطاك الله ﷻ من العَبيد والنَّعَم. وهؤلاء خَوَلٌ لفلان، أي: اتَّخَذَهم كالعبيد: ذلًّا، وقهرًا". العين (خول): ٤/٣٠٥.

(٢) العين (سخر): ٤/ ١٩٦ بتصرف يسير.

سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ فِي الْعَمَلِ، وَسُخْرَةٌ -أَيْضًا-؛ إِذَا كَانَ يُسْخَرُ مِنْهُ. فَإِنْ كَانَ هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ قُلْتَ: سُخَرَةٌ: بِفَتْحِ (الْخَاءِ)، وَ(الرَّاءِ). وَيُقَالُ: سُفُنٌ سَوَاخِرُ، أي: الْمُطِيعَةُ، الطَّيِّبَةُ الرِّيحِ. وَمِنَ الْبَابِ: سَخِرْتُ مِنْهُ؛ إِذَا هَزِئْتَ بِهِ " (١).

وقال الإمام الراغب: " (سخر): التَّسْخِيرُ: سياقة إلى الغرض المختصّ قهرا، فَالْمُسَخَّرُ، هو: المقيّض للفعل، والسُّخْرِيُّ: هو الذي يقهر؛ فَيَتَسَخَّرُ بإرادته. وسَخِرْتُ منه، واسْتَسْخَرْتُهُ لِلْهُزْءِ منه. وقيل: رجلٌ سُخَرَةٌ: لَمْنْ سَخِرَ، وسُخْرَةٌ لَمَنْ يُسْخَرُ منه (٢). والسُّخْرِيَةُ، والسِّخْرِيَةُ: لفعل الساخر " (٣).

وقال ابن منظور: " (سخر): سَخِرَ مِنْهُ وَبِهِ سَخْرًا، وسَخَرًا، ومَسْخَرًا، وسُخْرًا، بِالضَّمِّ، وسُخْرَةً، وسِخْرِيًّا، وسُخْرِيًّا، وسُخْرِيَّةً: هَزِئَ بِهِ.. ويُقَالُ: سَخَرْتُه، بِمَعْنَى: سَخَّرْتُه، أَي: قَهَرْتُه، وَذَلَّلْتُهُ. وسَخَّرَهُ تَسْخِيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلَا أُجرة، وَكَذَلِكَ تَسَخَّرَه. وسخَّره يُسَخِّرُه سِخْرِيًّا وسُخْرِيًّا وسَخَرَه: كَلَّفَهُ مَا لَا يُرِيدُ، وَقَهَرَهُ. وَكُلُّ مَقْهُورٍ مُدَبَّرٍ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ مَا يُخَلِّصُهُ مِنَ الْقَهْرِ؛ فَذَلِكَ مسخَّر. وَرِجْلٌ سُخَرَةٌ: يَسْخَرُ بِالنَّاسِ، وقيل: يسخَرُ مِنَ النَّاسِ. وسُخْرَةٌ: يُسْخَرُ مِنْهُ. وَقِيلَ: السُّخريُّ، بِالضَّمِّ، مِنَ التَّسْخِيرِ والسِّخريّ، بِالْكَسْرِ، مِنَ الهُزْء. وَقَدْ يُقَالُ فِي الْهُزْءِ: سُخري وسِخري. وَيُقَالُ: سَخَرْتُه، بِمَعْنَى: سَخَّرْتُه، أَي: قَهَرْتُهُ. وَرَجُلٌ سُخْرَة: يُسَخَّرُ فِي الأَعمال، ويَتَسَخَّرُه مَنْ قَهَره. والتسخيرُ: التذليلُ. وَكُلُّ مَا ذَلَّ، وَانْقَادَ، أَو تهيأَ لَكَ عَلَى مَا تُرِيدُ؛ فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ " (٤).

وقال أبو البقاء: " (السخر): كل ما في القرآن من سخر، فهو الاستهزاء إلَّا **(سِخْرِيًّا)** في [المؤمنون: ١١٠]؛ فإن المراد: التسخير، والاستخدام " (٥).

قلت: تبين مما سبق: أن مادة (س خ ر) تدور في فلك المعاني التالية: الاستهزاء، التسخير،

---

(١) مقاييس اللغة (سخر): ٣/ ١٤٤ بتصرف.

(٢) **قلت:** جاء بناء المفردتين في حركاته وسكناته مسهمًا في الدلالة على كلّ طرفٍ؛ حيث إن الأولى: (سُخَرَة) جاءت بحركات على جميع حروفها مساوقةً للفعل الذي يقوم به الفاعل، وكأنه يفعله بكليته، ظاهريًا، ونفسيًا. وجاءت الثانية (سُخْرَة) ساكنة الخاء؛ اتساقًا مع المفعول به، والذي يرتسم في ظله تقييده، وإضفاء حالة السكون عليه؛ استشعارًا بالخزي الذي يعتريه نتيجة فعل الساخر فيه.

(٣) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني (سخر): صـ ٤٠٢ بتصرف.

(٤) لسان العرب (سخر): ٤/ ٣٥٢- ٣٥٤ بتصرف.

(٥) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، لأبي البقاء الكفوي: صـ ٤٩٤.

الاستخدام في الأعمال بلا مقابل، ركوب الدواب بلا أجر، التكليف بما لا يراد، الضحكة، الإطاعة، طيب سير السفن، الاحتقار، التذلل، الاستذلال، السوق إلى غرض معين قهرًا دون امتلاك الخلاص منه، التقيض للفعل، القهر، الذل، الانقياد، والتهيؤ على ما يراد.. إلخ.

المطلب الثاني: حقيقة النهي عن السخرية عند السادة المفسرين:

هذا، وقد ذهب السادة المفسرون إلى الكشف عن حقيقة المفردة المنهي عنها في إطار دلالتها اللغوية، متفقين فيما بينهم على معنى الاستهزاء، متوسعين بإضافة بعض الدلالات الأخرى، ومبينين مبعث تلك السخرية، ومبرزين طرفًا من آثارها السلبية... وغير ذلك. وهذا إجمالٌ يُعْنَى بتفصيله النصوص التالية.

قال الإمام الطبري مؤولًا: " اختلفت القراء في قراءة قوله: **(فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا)** [المؤمنون: ١١٠] فقرأه بعض قراء الحجاز وبعض أهل البصرة والكوفة: **(سِخْرِيًّا)** بكسر السين، ويتأوَّلون في كسرها أن معنى ذلك الهزء، ويقولون: إنها إذا ضمت فمعنى الكلمة: السخرة والاستعباد. فمعنى الكلام على مذهب هؤلاء: فاتخذتم أهل الإيمان بي في الدنيا هزؤا ولعبًا، تهزؤن بهم، حتى أنسوكم ذكري. وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة بضم السين، وقالوا: معنى الكلمة في الضم والكسر واحد " [(١)]. **وقال– أيضًا–:** "كان بعض أهل العلم بالعربية من أهل البصرة يقول: مَنْ كسر السين من السخري، فإنه يريد به الهزء، يريد يسخر به، ومن ضمها فإنه يجعله من السخرة، يستسخرونهم: يستذلونهم " [(٢)].

وقال الإمام الماوردي مبينًا مظاهرها: " في هذه السخرية المنهي عنها قولان: **أحدهما:** أنه استهزاء الغني بالفقير؛ إذا سأله، قاله مجاهد. **الثاني:** أنه استهزاء المسلم بمَنْ أعلن فسقه، قاله ابن زيد. **ويحتمل ثالثًا:** أنه استهزاء الدهاة بأهل السلامة [(٣)] " [(٤)]. **وقال الزمخشري:** " السخرية من باب

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن= تفسير الطبري، لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري: ١٧/ ١٢٦ بتصرف.

(٢) تفسير الطبري: ٢٠/ ١٣٧.

(٣) **المراد بأهل السلام:** مَنْ لا يثاب، ولا يعاقب. قال الإمام الماتريدي: " مَنْ لا يثاب ولا يعاقب فهو من أهل السلامة؛ لأنه ليس مكلفًا". تفسير الماتريدي: ١/ ١٤٤ بتصرف يسير. ومن ثَمَّ قيل: " طريق أهل السلامة، ينتهي إلى الجنة ودرجاتها؛ لأنهم محبوسون في حبس وجودهم". روح البيان، لأبي الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي: ٦/ ١٢٩ بتصرف.

(٤) النكت والعيون= تفسير الماوردي، لأبي الحسن علي بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد، الشهير بالماوردي: ٥/ ٣٣٢.

العيب، والجهل " [١].

وقال ابن عطية: " **(يَسْخَرْ)**، معناه: يستهزئ. والهزء إنما يترتب متى ضعف امرؤ: إما لصغرٍ، وإما لعلةٍ حادثةٍ، أو لرزيةٍ، أو لنقيصةٍ يأتيها، فنهي المؤمنون عن الاستهزاء في هذه الأمور، وغيرها نهيًا عامًا؛ فقد يكون ذلك المستهزَأ به خيرًا من الساخر " [٢].

وقال الإمام الرازي: " في الآية إشارة إلى أمور ثلاثة، مرتبة بعضها دون بعض، وهي: السخرية، واللمز، والنبز، فالسخرية، هي ألَّا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال، ولا يلتفت إليه، ويسقطه عن درجته، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب، وهذا كما قال بعض الناس: تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم؛ يقولون: هو دون أن يذكر، وأقل من أن يلتفت إليه؛ فقال: لا تتكبروا [٣]؛ فتستحقروا إخوانكم، وتستصغروهم؛ بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلًا " [٤].

وقال الإمام البقاعي مقدرًا: " **(لَا يَسْخَرْ)**، أي: يهزأ، ويستذل " [٥]. **وقال الإمام القشيري مبينًا المراد:** " نهى الله ﷻ عن ازدراء الناس، وعن الغيبة، وعن الاستهانة بالحقوق، وعن ترك الاحترام " [٦].

وقال الإمام ابن عاشور: " السخرية: الاستهزاء. يقال: سخر منه، أي: حصلت السخرية له من كذا " [٧].

وقال الإمام المراغي: " السخرية: الاحتقار، وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد تكون بالمحاكاة بالقول، أو بالفعل، أو بالإشارة، أو بالضحك على كلام المسخور منه؛ إذا غلط فيه، أو على صنعته، أو على قبح صورته " [٨]. **وقال أ.د/ وهبة الزحيلي مقدرًا:** " **(لَا يَسْخَرْ)**: لا

(١) الكشاف: ١/ ٦٦.
(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ١٤٩.
(٣) **قلت:** في هذا التأويل إشارة إلى مبعث السخرية بالنسبة لنفسية الفاعل كما سيتضح في التوظيف.
(٤) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٨ بتصرف.
(٥) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٥.
(٦) لطائف الإشارات: ٣/ ٤٤٢.
(٧) التحرير والتنوير: ١٠/ ٢٧٥.
(٨) تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي: ٢٦/ ١٣٢.

يهزأ، ولا يحتقر، ولا يعيب. والسّخرية: الازدراء، والاحتقار، ويقال: سخر به، وسخر منه " [١].

وقال الإمام الشنقيطي: " قوله: **(لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ)**، أي: لا يستخفوا، ولا يستهزئوا بهم، والعرب تقول: سخر منه، بكسر (الخاء)، يسخر بفتح (الخاء)؛ إذا استهزأ به، واستخفَّ " [٢]. " **ويقال:** سخرت منه: هزئت به، والسُّخْرَةُ وزان غُرْفَةُ: ما سخرت من خادمٍ، أو جاريةٍ، أو دابةٍ، بلا أجرٍ، ولا ثمنٍ. وسخرته في العمل بالتثقيل: استعملته مجانًا، وسخَّر الله ﷻ الإبل: ذلَّلها، وسهلها " [٣]. **وقال الشيخ أبو زهرة مقدرًا:** " يعيبونهم " [٤].

التعليق:

قلت: أسفر صنيع السادة المفسرين عن أن مفاد النهي عن السخرية يكمن في **النهي عما يلي:** الاستهزاء، العيب، الجهل، عدم نظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال، وترك الالتفات إليه، إسقاط الشخص عن درجته، التكبر، الاستحقار، الاستصغار، الاستذلال، الازدراء، الاحتقار، ذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، الاستخفاف، تسخير الخدم والجواري والدواب بلا أجر ولا ثمن، الاستعمال مجانًا، التذلل، والتسهيل.. إلخ.

هذا، وليس بخافٍ أنَّه قد تقرَّر معنى الاستهزاء عند الجمهور، وذلك على اختلاف جهاته، وكثرة متعلقاته، وتنوُّع مظاهره [٥].

كما ألقوا الضوء على منشأ السخرية، وهي **بالنسبة للفاعل:** التكبر، والشعور بالضعة. **وبالنسبة للمفعول به:** إما لصغر، أو علة حادثة، أو رزية، أو نقيصة يأتيها. **وأفصحوا عن صور السخرية وآلتها،** وهي كونها بمحاكاة القول، أو الفعل، أو الضحك على المسخور منه لأمر تلبس به، أو فعل أتاه، أو حدث باشره، كما تكون الإشارة.. إلخ.

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لـ أ.د/ وهبة الزحيلي: ٢٦/ ٢٤٧.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ مُحَمَّد الأمين الشنقيطي: ٧/ ٤١٢ بتصرف يسير.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب مُحَمَّد صديق خان: ٥/ ٣٥٦ بتصرف.

(٤) زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد: ٧/ ٣٣٨٩.

(٥) أمثال مَنْ تقدم ذكرهم، وغيرهم الكثير. ينظر: تفسير الإيجي= جامع البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن عبد الرحمن الإيجي: ٢/ ٨٦. روح البيان: ٣ / ٤٧٣. روح المعاني: ٥/ ٣٣٦.

المطلب الثالث: التوسع في المعنى [١] بتوظيف الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية:

قلت: تقرر مما سبق: أن التوسع في المعنى هنا [٢]؛ بتوظيف ما انطوت عليه المفردة من دلالاتٍ، واستصحبته من معانٍ وافراتٍ، ولوحت به من إيحاءاتٍ، وفاضت به من إشاراتٍ- أمرٌ بدهيٌّ مرادٌ، وشأنٌ طبعيٌّ مقصودٌ، له وقعه، ودلالته؛ إذ به يتأكد سبب إيثارها، ويُكْشَفُ عن سرِّها، ويتقرر في ضوئه: استحالة الاستغناء عنها، أو تغييرها بسواها؛ حيث قد جاءت مستقرة في قرارها، متمكنة في مقامها، منسجمة مع عناصر نظمها، متعينة في دلالتها، دقيقة في مبناها، فصيحة في معناها؛ إذ

(١) قلت: وأول مَنْ قال بـ (التوسع في المعنى) صراحة وتطبيقا- فيما أعلم-، هو: أ.د/ فاضل صالح السامرائي؛ فهذا أصل يعتمده في جُلِّ دراساته، وينطلق من خلاله في فهم النظم القرآني، سواء أكان في المفردات، أم المعاني، أم الأساليب: ذكرًا، وحذفًا.. إلخ. ينظر في ذلك مجموع مصادره التالية: التعبير القرآني: صـ ٣٣-٣٦. الجملة العربية والمعنى: صـ ١٤٣-١٧٥. الجملة العربية تأليفها وأقسامها: صـ ٧٥-١٠٩. معاني النحو. وهو بكل جزيئاته، وتفاصيله خير شاهد على هذا. وقد تجلى هذا المبدأ في ثنايا تراثنا التفسيري كفعل واتجاه في فهم بعض المفردات القرآنية، لا سيما في محاولة الجمع بين الأقوال الواردة فيها، كما سيتجلى في هذه الدراسة، إلا أن مصطلح (التوسع في المعنى) لم يذكر صراحة عند أي من علمائنا السابقين. وقد لمست هذا المبدأ عند فضيلة أستاذنا الراحل العلامة: أ.د/ إبراهيم عبد الرحمن خليفة، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين والدعوة بـ (القاهرة) – رحمه الله تعالى- أثناء شرحه لي مادة التفسير التحليلي، في الفرقة الثانية، في مرحلة الدراسات العليا، وقد قرأت مؤلفاته التي اتخذتها الجامعة منهجا مقررا على كليات الدراسات الإسلامية، وغيرها، ومنها: (مناهج المفسرين)، و(الدخيل)، و(تعليقات على الإتقان في علوم القرآن)؛ فلمست أن (التوسع في المعنى) عنده مبدأ ينطلق منه في فهم معنى الكلمة القرآنية، ومسلك يسلكه في الكشف عن سبب إيثارها، وبرهان إعجازها، ولا يقف الأمر عنده عن حد الدلالة اللغوية، بل ويفعِّل الدلالة الصرفية على تنوعها، وكثرة احتمالاتها.

(٢) ومما يشهد لصحة التوسع في المعنى، وكونه تابعًا للدلالة اللغوية: قول الإمام القرطبي: " ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠]: بالضم، والكسر، وفرق أبو عمرو بينهما؛ فجعل المكسورة من جهة التهزؤ، والمضمومة من جهة السخرة، ولا يعرف هذا التفريق: الخليل، ولا سيبويه، ولا الكسائي، ولا الفراء. قال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد. وحكى الثعلبي عن الكسائي والفراء: الفرق الذي ذكره أبو عمرو، وأن الكسر بمعنى: الاستهزاء، والسخرية بالقول. والضم، بمعنى: التسخير، والاستبعاد بالفعل. وقال المبرد: إنما يؤخذ التفريق بين المعاني عن العرب، وأمَّا التأويل فلا يكون". تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله شمس الدين القرطبي: ١٢/ ١٥٤ وما بعدها بتصرف. **قلت**: قد أشار كلامه إلى أنَّ المعول عليه في فهم المفردة القرآنية، إنما هو الجذر اللغوي لها، وما في طياته من دلالاتٍ، وما يستصحبه من استعمالاتٍ، وما أنيط به من إيحاءاتٍ، وما يفيض به من إشاراتٍ؛ مما يؤكد أن المعاني الكامنة في المفردة معتبرةٌ، ولابدَّ من توظيفها، والإفادة منها ما أمكن.

كانت هي الأدخل في الكشف عن حقيقة فعل مسماها، والأبلغ في ارتسام صورها، والأظهر في الإيحاء بالبعد النفسي عند طرفيها؛ حيث قد حملت في مطاويها دعائم الإفصاح عن نفسية الفاعل، ومواجهته، وإبراز نفسية المسخور منه، وتصوير آلامه الدامغة، والأكثر تناغما مع الإعلان عن سوء آثارها، وجلاء بديع العناية الربانية في مواجهتها، والأظهر في التحذير من عواقب المخالفة، وبيان سوء المصير، وتقرير قبح المآل، والأكثر اتساقا لإبراز التقويم الإلهي، والمعالجة الربانية، والأكثر حثا على الامتثال، والإذعان لمنهج الرحمن ﷻ.. وغير ذلك؛ مما يصوِّر مكانة المفردة القرآنية، ويعلن عن كيفية مواجهتها للأحداث، ويقرِّر دورها الفعال في تقديم العلاج الناجع في مناهضتها، كما يقرر: سمو نظمها القرآنيّ، ويبرز وجه إعجازها البيانيّ. **وهذا إجمالٌ مطويٌ، يتَسَنَّى بيانه مفصلًا ضمن المسائل التالية.**

المسألة الأولى: الكشف عن حقيقة المفردة، وارتسام صورها:

انطوت المفردة على دلالات تكشف عن حقيقتها، وتميط اللثام عن صورها، وتعلن مظاهرها؛ حتى يَتَسَنَّى القيام بمواجب النهي عنها على أبلغ وجه، وأكمله؛ فارتسمت حقيقة المنهي عنه، في ضوء **مدلولات**: الاستهزاء، الاحتقار، الاستذلال، الضحكة، الاستخدام، التقيض للفعل، التكليف بما لا يراد، العيب، عدم النظر إلى الشخص بعين الإجلال، وترك الالتفات إليه، وإسقاطه عن درجته، الازدراء، الاستخفاف، والاستصغار؛ ومن ثَمَّ فكل مَنْ يفعل ذلك؛ فقد تلبس بالسخرية المنهي عنها، ووقع في وخيم عواقبها.

وقد جاءت السنة النبوية مؤكدةً هذا المعنى؛ «فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا [(١)]، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، **وَلَا يَحْقِرُهُ**، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ[(٢)] مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» [(٣)].

---

(١) قال ابن فارس مؤصلا: " (نَجَشَ): (النُّونُ)، وَ(الْجِيمُ)، وَ(الشِّينُ): أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِثَارَةِ شَيْءٍ. مِنْهُ النَّجْشُ: أَنْ تُزَايِدَ فِي الْمَبِيعِ بِثَمَنٍ كَثِيرٍ؛ لِيَنْظُرَ إِلَيْكَ النَّاظِرُ؛ فَيَقَعَ فِيهِ". مقاييس اللغة (نجش): ٥ / ٣٩٤.

(٢) قلت: قد جاء التعبير هنا بـ (امرئ) دون (المسلم)، وفيه إلماح إلى أن مَنْ يفعل تلك الأمور المنكرة، فإنه حينئذٍ لا يستأهل وصف الإسلام، بل جدير به أن يتجرد عن وصف الإسلام، ويخلع عنه وصف الإيمان، ويبعد عن ساحة الخضوع والإذعان للرحمن ﷻ.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، برقم (٢٥٦٤). صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: ٤/ ١٩٨٦.

«وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَخُونُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: عِرْضُهُ، وَمَالُهُ، وَدَمُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» (١).

المسألة الثانية: الإيحاء بالبعد النفسي عند طرفيها: أوحت المفردة بما انطوت عليه من معانٍ، وحملته في مطاويها من إشاراتٍ، ببواعث السخرية النفسية عند الفاعل، كما آذنت بآثارها الدامغة في نفسية المفعول به. وفيها نقطتان.

النقطة الأولى: الإفصاح عن نفسية الساخر، ومواجهته:

قد استصحبت الكلمة القرآنية من صدق الدلالات، وعميق الإيحاءات، ما به يتمُّ الكشف عن نفسية الفاعل، مسجلةً البواعث التي دفعته إلى السخرية من غيره، مرتسمةً إياه في صورة المتكبر، غليظ النفس، حاد الطبع، قاسي القلب، عديم الإيمان، مَنْ يستشعر الأفضلية على غيره، ويتسلط عليهم بحقد، دون رحمة، أو شفقة.

ويمكن تصنيف تلك البواعث في أبعادٍ ثلاثة:

الأول: ضعف إيمانه، وجهله. **الثاني**: الكبر، وقسوة القلب. **الثالث**: الشعور بالضعة والصغار. ولكلٍّ بعدٍ منها ما يقابله من واقع الدلالات اللغوية، ويقع في مواجهته؛ إذ قد تجلت تلك الأبعاد المعنوية في ظلال معاني المفردة القرآنية، وكانت من فيض مطاويها العربية.

أما البعد الأول وهو ضعف إيمانه وجهله: فتدل عليه مدلولات: الاستهزاء، الذل، الاستعمال مجانًا، التقيض للفعل، التكليف بما لا يراد، تسخير الخدم والجواري والدواب بلا أجر ولا ثمن، التذلل.. إلخ؛ لأنَّ مَنْ يقدم على مقارفة تلك الأفعال الشنيعة، إنَّما يرتاب في إيمانه، ويشك في تحقق إسلامه؛ إذ لا تجتمع تلك الخبائث مع حقيقة الإيمان، ولا تنتظم مع الاستسلام للرحمن ﷻ، بل إنَّها لا تصدر إلَّا عمَّنْ مرض قلبه، وعطبت نفسه، واتسم بكل معاني الجهل، وشتى أبعاده؛ مما جعله يرى سعادته وتحقيق ذاته في ظلم الآخرين، وينشد مراداته في إذلالهم، ويهنأ بالتسلط عليهم، وظلمهم.

ومِمَّا يدلُّ على أنَّ فعل السخرية وحقيقة الإيمان لا يجتمعان: أنه بمقتضى ذلك الفعل يكون الساخر

(١) حسن غريب: أخرجه الترمذي: أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، برقم (١٩٢٧). قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب". وصححه الألباني. سنن الترمذي: ٤/ ٣٢٥.

قادحًا في حكمة الله ﷻ، متهاونًا بخلقه، طاعنًا في جميل نعوته، وجليل صفاته ﷻ، متناسيًا أنهم بكلِّ شكلٍ صنعة العليم الخبير، وعلى كلِّ حالٍ هم عنوان نافذ إرادته، وشعار مطلق قدرته، فاستهزاؤه من غيره تحقير لِمَنْ تعلقت به إرادة الفاطر ﷻ، وقدرته، وبليغ علمه؛ لأنه ﷻ يخلقهم بمجموع تلك الصفات. **ومن ثَمَّ قال الشيخ الشعراوي:** " الله ﷻ خلق خلقه بمجموع صفات الكمال فيه " (١).

و**قال مبينًا منشأ السخرية:** " السخرية من الناس، علامة عدم الإيمان؛ لأننا كلنا مخلوقون من إله واحد، فهذه الصفة التي سخرت فيها من إنسان أعرج مثلا، لا عمل له فيها، ولا حول له ولا قوة. والإنسان لم يصنع نفسه، والحقيقة أنك تسخر من صنع الله ﷻ، والذي يسخر من خلق الله تعالى، إنسان غبي؛ لأنه سخر من خلق الله في عيب، ولم يقدر ما تفضل الله ﷻ به عليه، كما أنه سخر من عيب، ولم يفطن إلى أن الحق ﷻ قد أعطى ذلك الإنسان خصالا ومميزات ربما لم يعطها له، والله ﷻ يقول: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ)** [الحجرات: ١١]؛ إنَّ مجموع كل إنسان، يساوي مجموع كل إنسان آخر، وذلك هو عدل الله تعالى، فإذا كنت أحسن من إنسان في شيء؛ فابحث عن النقص فيك " (٢).

هذا، وحري بالتنويه: أنَّ التعبير بـ **(قَوۡمٞ)** قد تناغم مع هذا البعد، ووقع في مواجهته؛ لأنَّ الساخر يعتقد توفر هذا العنوان في جانبه اتساقًا مع كبره المبني على غياب إيمانه، واستجابةً لعلوه، وجبروته المتولد عن شدة جهله؛ فيكون في حقه ذمًّا له، وكشفًا عن ظلام نفسيته، ومرض قلبه. ويكون في حق المسخور منه واقعًا محققًا تسلية له من ربه ﷻ.

وأما البعد الثاني وهو الكبر وقسوة القلب: فيقع في مقابلته مدلولات: العيب، الجهل، عدم نظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال، وترك الالتفات إليه، إسقاط الشخص عن درجته، التكبر، الاستحقار، الاستصغار، الاستذلال، الازدراء، الاحتقار، ذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، الاستخفاف، والتسهيل، والانتقاص.. إلخ.

ومن هنا قال الإمام العسكري: " السخرية: طلب الذلة؛ لأنَّ التسخير في الأصل: التذليل، وفي السخرية خديعة، واستنقاص لِمَنْ يسخر به " (٣).

---

(١) الخواطر: ٥/ ٢٩٧٠ بتصرف يسير.

(٢) تفسير الشعراوي: ١/ ١٦١ وما بعدها بتصرف يسير.

(٣) معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن مهران العسكري: صـ ٢٧٥ بتصرف.

وفي ذلك ما يكشف عن الجانب المظلم في نفسية الساخر؛ فهو مخادع، متسلط، منتقص لغيره، ينشد إذلالهم، ويتسلط عليهم، وينمو بإيذائهم، ويترعرع على آلامهم، ويتهاون بآدميتهم، ويحتقرهم، ويستخف منهم، ويعيبهم؛ استشعارًا منه نفسيًا أنَّه أفضل منهم حالًا، أو أعلى مقامًا، أو أجل شأنًا؛ مما يدفعه إلى التكبر عليهم، والحط من شأنهم.

وحقيقة الأمر، وواقع الحال: أنَّه بذلك يقدم برهان جهله، ويعلن عن سوء نفسه، ومرض دواخله، وانطماس مشاعره، وغياب آدميته، وانعدام ضميره، وارتفاع أخلاقه؛ مما يجعلهم في الحقيقة محط سخرية، ومناط ازدراء، ومحل استهزاء.

ومن ثَمَّة قال نعمة الله النخجواني [(١)] **ردًّا عليهم**: " هم مقهورون تحت قدرته ﷻ، مجبورون جنب إرادته واختياره ﷻ، لا قدرة لهم من أنفسهم أصلًا؛ فهم بالاستهزاء أحق، وبالاستهانة والسخرية أولى وأليق " [(٢)].

قلت: وممَّا يدل على أنَّ الكبر سببًا لتلك الفعلة النكراء: أنَّ الحق ﷻ آثر التعبير في هذا المقام بـ **(قَوْمٌ)**؛ إذ إنَّه الأنسب لفعل المتكبر، والأكثر اتساقًا مع حاله، والأبلغ منعًا من حدوث تكبره، وحدًّا من جبروته؛ وعليه فقد جاء عنوان (القوم) مستجيبًا لمقامه، متناغمًا مع مقتضى حاله.

وفي هذه المناسبة قال الإمام الرازي مبينًا نكتته، موضحًا أثره التفسيري: " قال تعالى: **(لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ)**، ولم يقل: نفسٌ من نفسٍ، وذلك؛ لأنَّ هذا فيه إشارةٌ إلى منع التكبر، والمتكبر في أكثر الأمر يري جبروته على رءوس الأشهاد، وإذا اجتمع في الخلوات مع مَنْ لا يلتفت إليه في الجامع؛ يجعل نفسه متواضعًا، فذكرهم بلفظ القوم؛ منعًا لهم عمَّا يفعلونه " [(٣)].

كما أنَّ فيه ردًّا على كبر الساخر؛ لأنَّه ينصب في مقابله حيثية عدم تكبره ببيان أنَّه يتكبر ممن هو

---

(١) **هو** " نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان: متصوف، من أهل (آقشهر)، بولاية (قرمان) نسبته إلى (نخجوان) من بلاد القفقاس، رحل إلى (الأناضول)، واشتهر وتوفي بـ(آقشهر). له (الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية)، قيل عنه: كتبه بلا مراجعة للتفاسير، وأدرج فيه من الحقائق والدقائق ما يعجز عن إدراكه كثيرٌ من الناس، مع الفصاحة في عبارته، (ت: ٩٢٠هـ)". الأعلام، لخير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس الزركلي: ٣٩/٨ بتصرف.

(٢) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، لنعمة الله بن محمود النخجواني: ١/ ٥٣٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٠٨ وما بعدها.

مثله ويقع معه في نفس عنوان تعبيره؛ إبطالًا لسببية تكبره، وحدًّا من جبروته، وكسرًا لما يعتقده بحق نفسه، لاسيما وأنَّ ما سيرد بعده فيه بالغ أوجه الردِّ عليه.

ومن ثَمَّ فتتمة لمنظومة النَّهي، وحشدًا لمواجهته آثر التعليل له بقوله ﷻ: **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ)**؛ فقد أسهم هذا التعليل في جلاء بديع التناسب بين عناصر السبك؛ لكونه الأدخل في مواجهة الساخر، والردِّ عليه من منطلق تكبره، ومحاولته انتقاص غيره، ببيان أنَّهم أفضل منه حالًا، وأعلى شأنًا ومقامًا، بتصريحٍ من الخالق ﷻ الأعلم بالنفوس، والمطلع على الضمائر والغيوب. **ومن ثَمَّ فيتجلَّى بديع توجيه الإمام الرازي لهذا التعليل؛ حيث قال: " (عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ)**؛ كسرًا له، وبغضًا لنكره " [(١)].

ذلك، وقد جاءت السنة مقررة حقيقة الكبر، ومبعثه؛ " فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ- يَعْنِي- مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا، وَنَعْلِي حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ مَنْ بَطَرَ [(٢)] الحَقَّ، وَغَمَطَ [(٣)] النَّاسَ» " [(٤)]. **قال الحافظ ابن حجر**: " الْغَمْطُ: بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ، وَسُكُونِ (الْمِيمِ)، بَعْدَهَا مُهْمَلَةٌ: هُوَ الِازْدِرَاءُ، وَالِاحْتِقَارُ " [(٥)]. وهذا من أوجه تأكيد السنة لما جاء في القرآن، وتقريره.

وأمَّا البعد الثالث، وهو الشعور بالضعة والصغار: فهو أمرٌ بدهيٌّ؛ إذ لا مسوغ لشخصٍ ما أن يحتقر غيره، أو يزدريه، أو ينتقصه.. إلخ، إلَّا في محاولة منه للتخلص ممَّا يستشعره تجاه نفسه من الدونية، والانحطاط، فيسقط ما بداخله على غيره في محاولةٍ للتخلص ممَّا قد ألمَّ به، وسيطر عليه.

وعليه فقد أنبأنا فعل السخرية بأنَّه قد يكمن الخلل النفسي في الشعور بالضعة، والاستصغار؛

---

(١) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٨.

(٢) قال ابن فارس: " (بَطَرَ): (الْبَاءُ)، وَ(الطَّاءُ)، وَ(الرَّاءُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الشَّقُّ. وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْبَطَرُ، وَهُوَ: تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي الْمَرَحِ". مقاييس اللغة (بطر): ١/ ٢٦٢ بتصرف.

(٣) قال الخليل: " غَمَطَ النِّعْمَةَ والعافيةَ، أي: لم يشكرها ". العين (غمط): ٤/٣٨٩. وقال ابن فارس: " (غَمَطَ): الْغَيْنُ، وَالْمِيمُ، وَالطَّاءُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. يُقَالُ: غَمَطَ النِّعْمَةَ: احْتَقَرَهَا. وَغَمَطَ النَّاسَ: احْتَقَرَهُمْ ". مقاييس (غمط): ٤/٣٩٦.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، برقم (١٩٩٩). سنن الترمذي: ٤/٣٦١.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي: ١٠/ ٤٩٠.

فيحاول الساخر أن يسقط ما هو كامن، ومستقر فيه على غيره، محاولًا بذلك الوصول إلى بغيته؛ إرضاءً لنفسه.

وفي هذا الشأن قال الشيخ الشعراوي مقررًا هذا المعنى: " قد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه؛ لأنَّ المنحرف دائمًا يشعر بنقصٍ؛ فيتضاءل، ويصغَر أمام نفسه، ويحاول أن يجرَّ الآخرين إلى نفس مستواه؛ حتى يتساوى الجميع، وإلَّا فكيف تكون أنت مهتديًا مستقيمًا وهو عاصٍ ضالٌّ؟! لذلك؛ تراه يسخر منك، ويُهوِّن من شأنك، لماذا؟ ليُزهِّدك في الطاعة؛ فتصير مثله " (١).

قلت: ومن البديع: أنَّ تعليل النهي يخدم ذلك البعد، ويدعمه؛ إذ قد جاء معاملًا للفاعل بنقيض قصده؛ حيث أراد إرضاء نفسه، وقصد التخلص من مرضه؛ فرد الله ﷻ عليه بكون المسخور منه قد يكون أفضل منه، وبعد أن كان هذا الشعور كامنًا في دواخله، أصبح معلنًا للجميع في كلام رب العالمين؛ وعليه فما هرب منه صدم به، وما حاول إخفاءه كشف عنه؛ فتمثل حسن كون الجزاء من جنس العمل.

قال الإمام الشنقيطي: " قد نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس، مبينًا أن المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر. ومن أقبح القبيح: استخفاف الدنيء الأرذل، بالأكرم الأفضل، واستهزاؤه به " (٢).

قلت: ومن الرسائل التي يبتعثها التعبير بكلمة **(قَوْمٌ)** ما يناسب هذا المعنى؛ لأن القومية بما تحمله من معانٍ، قد أسندت للطرفين: فاعلٍ، ومفعولٍ به؛ ذمًّا للفاعل، وكشفًا عن نفسيته المتعالية والمريضة، ومدحًا للمفعول به بما هو عليه في واقع الأمر، وحقيقته، أو بما سيؤول إليه حاله.

و— أيضًا— قد يكون الإسناد في الأول بحسب الظاهر، وفي الثاني بحسب الباطن. كما قد يكون عنوان (القوم) أولًا بحسب ما يعتقده الفاعل، ويدفعه لمقارفة السخرية، وذلك بموجب مرضه، وتوفر جهله، وسوء طويته، وفساد استعداده. وثانيًا بحسب ما يعلمه الله ﷻ عن حقيقة عباده، واطلاعه على نفوسهم، وكشفه لدواخلهم، بمقتضى بليغ علمه ﷻ، وبموجب جميل حكمته.

(١) الخواطر: ١٨/ ١١٠٧٦.
(٢) أضواء البيان: ٧/ ٤١٣.

وفي هذه المناسبة قال العلامة أبو السعود: " قوله ﷻ: **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ)**: تعليل للنهي، أو لموجبه [1]؛ فإنَّ مناط الخيرية في الفريقين ليس ما يظهر للناس، من: الصور، والأشكال، ولا الأوضاع، والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالبًا؛ بل إنَّما هو الأمور الكامنة في القلوب؛ فلا يجترئ أحدٌ على استحقار أحدٍ؛ فلعله أجمع منه لما نيط به الخيرية عند الله تعالى؛ فيظلم نفسه بتحقير مَنْ وقره الله تعالى، والاستهانة بمَنْ عظمه " [2].

وعليه فمن اللافت للنظر: أنَّ التعبير بـ **(قَوْمٌ)** قد واجه الأبعاد الباعثة على فعل السخرية بما لا يخفى بديع أثره، ولا يغيب رائق وجهه. كما أنَّ التعليل المذكور قد عالج جميع الأبعاد النفسية المسببة لفعل السخرية بما لا غاية وراءه.

وحيثيته: أنَّ الفاعل إذ تلبس بالسخرية نتيجة عدم إيمانه وجهله، فقد قدَّم برهان أفضلية غيره عليه؛ إذ لا خير يرتجى فيمَنْ انعدم إيمانه، وتوفر جهله، فطعن في حكمة ربه سبحانه، وتناسى جميل نعوته، وجليل صفاته. وإذا تلبس بذلك نتيجة كبره وقسوته؛ فما أسوأ حاله، وما أردء مآله! مما يظهر برهان خيرية غيره منه، ومناط أفضليته عليه، فيكون التصريح بذلك كسرًا له، وطعنًا فيما يتوهمه بشأن نفسه. وإذا تلبس به نتيجة شعوره بالضعة والصغار فقد زاد كبر الأمر بالتصريح، وبولغ فيه بالتسجيل.

أضف إلى ذلك أن مجيء التشريع القرآني بالنهي عن السخرية مشفوعًا بتعليله أدخل في الانتهاء، وأدعى إلى الإذعان؛ حيث إنَّ الأحكام المعللة أوقع في النفس، وأقرب للامتثال.

النقطة الثانية: إبراز نفسية المسخور منه، وارتسام آلامه الدامغة:

وفي المقابل تتجلَّى نفسية المفعول به (المسخور منه)؛ فهو بما حاق به من تنمرٍ واستهزاءٍ واحتقارٍ.. صار مغتالًا معنويًّا، ومدموغًا نفسيًّا؛ لاستشعار كونه مقهورًا، ذليلًا، محتقرًا، وضيعًا، منتقصًا، غيرَ منظورٍ إليه بعين الإجلال، ساقطًا عن درجة الاعتبار، لا يلتفت إليه، معيبًا، ضعيفًا لا يملك لنفسه خلاصًا مما وقع عليه من ذلٍ، ولا قدرة له على الفكاك ممَّا حاق به من احتقارٍ واستخفافٍ.. إلخ.

ومن ثَمَّ قال الشيخ الشعراوي مؤكدًا حقيقة الإيذاء المعنوي: " السخرية، هي: الاستهزاء بفعل

(١) **قلت:** الفرق بينهما: أنَّ الأول يعلل النَّهي الصادر من قبل الله ﷻ، والثاني يعلل وجوب امتثالنا لمقتضاه. فهو جواب عن سؤالين، مفادهما: لماذا نهى الله ﷻ عن ذلك؟ ولماذا يجب علينا أن نمتثل؟

(٢) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٢١ بتصرف.

شخص ما، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلَّا الإيذاء المعنوي " (١).

ومن المعلوم: أن كل مادة لغوية إنَّما تفهم في ضوء المحسوسات أولًا، ثم تنتقل إلى المعاني تطورًا، وقد ارتبطت هذه المادة (س خ ر) بمعانٍ حسيةٍ، هي الغاية في ارتسام معنى الانقياد، والخضوع، والاستذلال، يتقرر ذلك في ضوء **مدلولات**: إطاعة السفن، وطيب الريح والسير لها، وركوب الدواب بلا أجرٍ أو ثمنٍ.

ومن البديع: أنه عند تأمل تلك المعاني؛ يتضح أن مادة المفردة قد تمعنت في الكشف عن الآثار السلبية القاتلة التي تلحق بالمسخور منه، وتدمغه؛ حيث تكشف عن مدى انهزامه نفسيًّا، وقتله معنويًّا؛ حتى صار كالجماد المنعدم الإرادة، أو الحيوان الذي يوجَّه بتوجيه صاحبه؛ مما يقرر أثرًا بعيد المدى، **مفاده**: أنَّ ما حاق به دون اختياره، أصبح أمرًا واقعًا لا خلاص منه، ومن ثَمَّ فتهيأت نفسه للفاعل على ما يريد، وارتاضت عليه، وصارت خاضعةً له، مستجيبةً لمراده، كشأن الدابة، أو السفينة التي تساق لغرضٍ مخصوصٍ، دون اختيار منها، أو إرادة لها؛ مما يرتسم ضياع الآدمية، ويصور انتهاك الحرية، ويثبت ارتفاع الأخلاقية، ويؤكد الوأد للنَّفسية.

ومن هنا فقد جاءت عبارة العسكري مؤكدةً هذا المعنى؛ حيث قال مفرقًا بينها وبين الاستهزاء: " إنَّ الإنسان يُستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسخر يدلُّ على فعل يسبق من المسخور منه، وذلك أنَّك تقول: استهزأت به؛ فتعدي الفعل منك بـ (الباء)، وهي للإلصاق؛ كأنَّك ألصقت به استهزاءً من غير أن يدلَّ على شئ وقع الاستهزاء من أجله، وتقول: سخرت منه؛ فيقتضي ذلك من وقع السخر من أجله؛ كما تقول: تعجبت منه؛ فيدلُّ ذلك على فعل وقع التعجب من أجله، ويجوز أن يقال: أصل سخرت منه: التسخير، وهو تذليل الشئ، وجعلك إياه منقادًا؛ **فكأنك إذا سخرت منه؛ جعلته كالمنقاد لك**، ودخلت (من) للتبعيض؛ لأنَّك لم تسخره كما تسخر الدابة وغيرها، وإنَّما خدعته عن بعض عقله " (٢).

المسألة الثالثة: إظهار مدى الآثار السلبية على البيئة الإسلامية، وجلاء بديع العناية الربانية:

ومِمَّا يلفت النَّظر، ويجذب الفكر: أن الحق ﷻ يعالج خللًا نفسيًّا، ينتج عنه خلل نفسي- أيضا-

(١) الخواطر: ٩/ ٥٣٥٩ بتصرف.

(٢) معجم الفروق اللغوية: صـ ٥٠ بتصرف.

أكبر منه؛ إذ ليس يعود بآثاره السلبية على الفرد فحسب، بل على المجتمع جميعًا، ومن ثَمَّ تتجلى العناية الربانية في أسمى صورها، وأرقى مظاهرها، وحتى يتم الوقوف على تلك الحقائق؛ ينبغي أولًا بيان ما يترتب على تلك الفعلة النكراء من: آثار هادمة، وسلبيات مدمرة، وملامح سوداء محطمة، سواء أكانت على المستوى الفردي، أم الجماعي.

قلت: كان من أظهر آثار السخرية أن كشفت المفردة عن نفسية الساخر على أتم وجه، وأبلغ بيان؛ إذ بينت أنه ذو طبيعة منحرفة عما تقتضيه الفطر السليمة، وحائد عن مسلك النفوس القويمة، وقد تجلى ذلك في بيان مبعث السخرية عنده، سواء أكان الكبر والغرور، أم الشعور بالضعة، والصِّغَر، وهو بذلك عدو لنفسه قبل أن يكون عدوا لمجتمعه، ولا يخفى على أحد بعد هذا البيان ما سيواجهه الساخر إزاء فعلته.

هذا، فضلًا عمَّا تجره السخرية في أذيالها، من عواقب وخيمه، تتمثل في الابتعاد عن الهدف الأسمى للبشر، ألا وهو الاشتغال بعبادة الله رب العالمين ﷻ؛ حيث إن مَنْ شُغِلَ بذلك؛ عطلت ملكاته الفكرية، وقدراته الجسدية، وصرفت نفسه عما أنيط بها، وغرقت في ظلماتها، ودفنت في أوهاقها.

وفي هذه المناسبة قال الإمام القرطبي ملمحًا لهذا البعد: " يستفاد من هذا: التحذير من السخرية، والاستهزاء بالضعفاء والمساكين، والاحتقار لهم، والإزراء عليهم، **والاشتغال بهم فيما لا يغني، وأنَّ ذلك مبعد من الله ﷻ** " [(١)].

وقال الشيخ الشعراوي: " لم يَعُدْ لهم شغل غير هذا؛ حتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكّر والتأمل؛ فلم يَبْقَ عندهم طاقة فكرية" [(٢)]. ومن ثَمَّ فيتقرَّر بليغ أثرها السيء على نفسية الساخر.

هذا، وقد نَوَّهَ الإمام العسكري إلى الأثر النَّفسي النَّاجم عنها قائلًا: " أصل سخرت منه: التسخير، وهو تذليل الشيء، وجعلك إياه منقادًا؛ **فكأنك إذا سخرت منه؛ جعلته كالمنقاد لك،** وأسهمت (من) في بيان أنَّك إنَّما **خدعته** عن بعض عقله " [(٣)].

قلت: ومن ثَمَّ نكون بين شخصين في أسوأ حالين: **الأول:** مخادِعٌ متسلطٌ مستذِلٌ، **والآخر:** منقادٌ مقهورٌ مستذَلٌ.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٥٥.

(٢) تفسير الشعراوي: ١٦/ ١٠١٦٨.

(٣) معجم الفروق اللغوية: صـ ٥٠ بتصرف.

كما كشفت السخرية عن نفسية المسخور منه؛ ببيان أنَّه لا يملك لنفسه خلاصًا مما أحدق به، كما ارتسمت كم هو مستشعر للخزي، والانكسار، والتذلل، والانقياد. وكلُّ مَنْ هذا حاله كيف يقوم بوظيفته، وتكليفاته، سواء أكانت على وجه العبادات، أم المعاملات، أم الأخلاق والسلوك؟! امرئ اتصف بكلِّ معاني الانقياد، والخضوع، والذل، ما الذي يتوقع منه؟ أينتج، ويرتقي، ويقدم لمجتمعه ما يسمو به؟! أيسهم في حضارته، وسبقه، وإضافة موارده؟ أيستطيع أن يعيش في أمان واستقرار وهو تحت أنقاض الظلم، والذلة، والمهانة؟! كيف يربي أبناءه – على فرض وجودهم- مع هذا الشعور القاتل والمدمر، وكيف يَتَسَنَّى الاعتماد عليه، والثقة فيه وهو فاقد لها؟!

وبناءً عليه فما يجني المجتمع منه على المستوى الفردي والجماعي إلَّا انعدام الثقة في النَّفس، والقعود عن العمل، والتقهقر عن التقدم، والبعد عن المشاركة، والتقاعص عن الإنتاج، ولعله قد امتلك من الملكات والمواهب والإمكانات، ما به يتحقق السمو، والارتقاء، ومواكبة ركب الحضارة والازدهار. وكم من نماذج بشرية سُمِعَ عنها أنَّها تعرضت للازدراء، والاحتقار، والاستخفاف وهم في واقع الأمر كانوا من العلماء والموهوبين، ممَّن أبهروا العالم بملكاتهم، وفاجئوه بمواهبهم، وطلوا عليه ببديع ثمار إمكاناتهم، وأثاروا تعجب وإعجاب الجميع بمكتشفاتهم.

أقول: ما تَمَّ جنيه جراء هذا الفعل المشين إنَّما هو الاغتيال لنفس بشرية، أصبحت شبحا يعيش في مجتمع لا ينتمي إليه، ولا يشعر بالراحة والطمأنينة معه.

قال الشيخ عبد الكريم الخطيب كاشفًا عن حاله: " يبدو الإنسان مسخًا هزيلًا، وشبحًا باهتًا، ودخانًا متصاعدًا، يمثِّل إنسانًا قدماه على الأرض، ورأسه في السماء! " [(١)].

ومن هنا قد يصبح ثغرة يَتَأَتَّى منها الدخول للمجتمع، ومنفذًا لأعدائه، يخترقون به وحدة الصف المسلم، الذي أمر الحق ﷻ بضرورة التحامه، واعتصامه، مصداق قوله ﷺ: **(إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ)** [الصف: ٤]. ومن هنا نعجز عن امتثال أمر الله ﷻ في إقامة الصف المرصوص، كيف وقد تَمَّ اختراق أحد أركانه، وخلخلة لبناته؟!

ومما يستظهر ذلك المعنى: مدلولات: الاستعمال مجانًا، وركوب الدواب بلا ثمنٍ، أو أجرٍ، التقيض للفعل، الاستخدام، الإطاعة..؛ ممَّا يكشف بعمقٍ عن نفسية المسخور منه، ويهدد بسوء مآله،

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب: ٨/ ٧١٧.

ووخيم حاله؛ لكونه بموجب ما حدث له قد تهيأ لفعل ما يطلب منه بكلِّ ألوانه من الإيذاء والمنكر مجانًا، وكأنه صار مطوعًّا لما يطلب منه، كما صار التسخير والامتثال لكلِّ مطلوبٍ منه طبعًا له؛ ومن ثَمَّ فلا عناء في استخدامه في الهدم والخراب، ولا حدَّ في تقييده في ممارسة أشكال المنكر، وألوان الدمار.. إلخ.

هذا، وقد أسهم في ارتسام هذا المعنى– أيضًا– إيثار التعبير بـ **(قَوْمٌ)**؛ تعريضًا بأن معاني القومية لا تنتظم بحال في سلك السخرية.

وإذا تمثل وقوع ذلك الأمر بين طرفين، كليهما عبر عنه بالقومية، التي تنتظم معاني: القوة، والانتصاب، والعزم، مع مراعاة الجمعية فيهما [1]؛ تصورنا مدى شدة الفرقة والاختلاف بين أركان المجتمع، وقطع أواصره، وانفصال لبناته، وانطماس وحدته، والقضاء على اتحاده.

ومن هنا– أيضًا– قد يشكل وجود المسخور منه خطرًا جسيمًا على المجتمع؛ لأنَّه بنفسيته المنقادة، والخاضعة، والذليلة، قد يحاول الثأر لها، والبحث عن ذاته الضائعة، وهويته المسلوبة؛ من خلال اللجوء إلى أعداء مجتمعه؛ فيكون عصاهم الضاربة، وسلاحهم الخفي، لا سيما مع تحقق كامل أهليته للطاعة، وانعدام ثقته بنفسه؛ فيصبح ممهدًا للاستقبال من الأعداء، والانصياع لهم؛ مما يجعله أشد وقعًا، وأجسم خطرًا، وأسوأ أثرًا.

ومن ثَمَّ فيتحقق أمران، كلاهما أسوأ من الآخر، **الأول**: التضحية بالطاقة الإيجابية الموجودة في نفس المفعول به، وحرمان المجتمع من مواهبه التي قد تعود عليه بالخير الوفير، والنفع الجمّ. **الثاني**: شحن نفسيته بالطاقة السلبية، وتوليد مشاعر الكره، وعدم الانتماء؛ مما يؤهله للعداوة، وحب الانتقام، ومن هنا ينشأ في ساحة المجتمع الإرهاب، والتطرف، والأفكار المدمرة، والمنحرفة عن المنهج القويم.. وغير ذلك مما لا يخفى بعد أثره، ولا تغيب عن العقول وجوه بشاعته، وجسامة خطره.

وما أجمل ما قاله الإمام البقاعي معلنًا ضمنًا حيثيات النهي عن الإزراء: " ذكر ما في القسم الرابع من الآداب، والمنافع، من: وجوب ترك أذى المؤمنين في حضورهم، والإزراء بحالهم، **المذهب لسرورهم، الجالب لشرورهم** " [2].

قلت: أعلن الإمام الأثر النفسي الناجم عن السخرية، ممثلًا في حيثية ذهاب السرور، وجلب الشرور،

(١) ينظر مقاييس اللغة: (قوم): ٥/ ٤٣.

(٢) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٤ وما بعدها بتصرف.

ولم يرد في كلامه تحديد جهة الشر المستتبع من قبلهم، والمستجلب من أفعالهم، ولا بيان مناطاته؛ مما يؤكد أنه على سبيل الإطلاق، والعموم؛ فيعم الفرد، والمجتمع على جميع الأصعدة، وشتى المستويات.

ثم قال الإمام معللًا: " **(مِّن قَوْمٍ)**؛ فإنَّ ذلك يوجب الشر؛ لأنَّ أضعف الناس إذا حرك للانتقاص؛ قوي بما يثور عنده من حظِّ النفس " (١).

قلت: فيتصور في ضوئه توقع أبشع آثار العنف، والتطرف، والانحراف، وأسوأ صور الثأر، وأبلغ أوجه الانتقام.

ومن خلال ما سبق: يتقرر أبلغ الآثار السلبية المخلَّفة عن تلك الأفعال، وما يستتبعها من أخطار جسيمة، وتؤذن به من أضرار مشينة، تعود بسوئها المحقق على كلٍّ من الفرد والمجتمع على السواء؛ ممَّا يسهم في إظهار بعد نفسي إزاء المواجهة الإلهية لها؛ إذ إنَّها من أبرز مظاهر الرحمة، وعنوان بليغ العناية، ولواء جليل الرعاية، وشعار جميل اللطف، وبديع التدبير؛ فلله دَرُّ هذا التنزيل الحكيم، المعجز البيان، البالغ منتهى درجات السمو في جميع الأحكام!

المسألة الرابعة: التحذير من عواقب المخالفة:

تبيَّن مما سبق الكشف عن كُنْهِ السخرية، والإعراب عن آثارها بالنسبة للفاعل، والمفعول به على السواء، وتقرر قبح سلبياتها على جميع الأصعدة، وشتى المستويات، وكان كلُّ ذلك مسهمًا بدوره في حصول التحذير منها، وتقرير عاقبة مقترفها على آكد وجه، وأبلغ بيان.

ومن ثَمَّتْ فإذا ما تمعنا النهي المذكور، وغصنا في أعماق دلالته، ومكنونات طياته؛ وجدناه ينبعث بحيثيات الانتهاء عنه، وأسباب التنفير منه؛ حيث آذن بقبح الجريمة التي انطوى عليها، ومن ثَمَّ الإيذان بشدة العقوبة إثرها؛ ففي ارتسام الجرم إلقاء الضوء حتمًا على ما ينتظر من العذاب؛ مما يؤكد التحذير، ويقرر الوعيد، ويصرخ بلطف الحكيم المجيد ﷻ.

ومن هذا المنطلق– أيضًا– اقتضى الحال إيثار التعبير بـ **(قَوْمٌ)** في الطرفين؛ إذ يوحي بإمكان المواجهة، والتوجه نحو الثأر من قبل المسخور منه، مع تحقق معنى القدرة عليه، معلنةً من وراء ذلك: أسباب تفكيك المجتمع، وعوامل إضعافه، وحتمية انهزامه؛ فيبلغ التحذير من وخيم أثرها، والوعيد على اقترافها، غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية!

(١) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٥ بتصرف يسير.

المسألة الخامسة: إبراز مظاهر التقويم الإلهي، والمعالجة الربانية:

عُنِيَتْ الآية الكريمة بتقويم الخلل الاجتماعي، وحماية الجانب النفسي، وتصحيح التصور الإيماني؛ فأحاطت النفوس بسياجٍ واقٍ من كلِّ ما ينال منها معنويًّا، ويقتلها نفسيًّا.

قال الإمام أبو حيان: " هذه الآية والتي بعدها تأديب للأمة، لما كان فيه أهل الجاهلية من هذه الأوصاف الذميمة التي وقع النهي عنها " (١).

قلت: وقد تبين مما سبق أن سبب النزول قد أفصح عن الحادثة التي هي بصدد المواجهة، والمعالجة، وأسهم في ارتسام مظاهر السخرية، ممثلة في ذكر ما يؤذي المرء معنويًّا، وينال منه نفسيًّا، **في ضوء مدلولات:** المعايرة بما يطعن في النفس، ويكسر الخاطر، التلويح بما عليه المرء من أوصاف خلقية، بقصد الإيذاء، ورومًا إلى الاحتقار، والطعن فيه، والإزراء عليه من خلال إسناد بعض الأوصاف التي كان عليها في الماضي.. إلخ.

قال الإمام الطبري: " اختلف أهل التأويل في السخرية التي نهى الله ﷻ عنها المؤمنين في هذه الآية؛ فقال بعضهم: هي سخرية الغنيّ من الفقير، نهي أن يسخر من الفقير لفقره. وقال آخرون: بل ذلك نهي من الله ﷻ مَنْ ستر عليه من أهل الإيمان، أن يسخر ممَّن كشف في الدنيا ستره منهم. **ثُمَّ قال الإمام:** والصواب من القول في ذلك عندي: أن يقال: إن الله ﷻ عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض، جميع معاني السخرية؛ فلا يحل لمؤمنٍ أن يسخر من مؤمنٍ، لا لفقره، ولا لذنبٍ ركبه، ولا لغير ذلك " (٢).

ومن ضمن الحوادث التي انتظمها سبب النزول: نسبته إلى ما ليس له دخل فيه، خاصة المعايرة بذكر حال الأم، أو الأب كما قد تقرَّر. وقد انطوت المادة (س خ ر) على ما يناسب تلك الحالة، في ضوء **مدلولات:** التكليف بما لا يراد، والاستعمال مجانًا؛ ممَّا يصوِّر معنى: التحميل عليه نفسيًّا بلا ذنبٍ مرتكبٍ، ودفعه ضريبَة معنويةً بلا جرمٍ مقابلٍ؛ مما يجعله مستشعرًا الظلم، والاضطهاد؛ إذ إنَّه يحاسب على ما لم يقترفه، وما ليس له دخل فيه، وقد قال ﷻ: **(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)** [الأنعام: ١٦٤].

إلَّا أنَّ الحال أنَّ التشريع الإلهي الوافد بالعلاج والناجع في المواجهة لم يَنْهَ عن المعايرة، ولا الاحتقار،

(١) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي: ٩/ ٥١٦.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٢/ ٢٩٧ وما بعدها بتصرف.

ولا عن الطعن في النفس، ولا عن كسر الخاطر، ولا التلويح بما كان عليه المرء.. إلخ.

بل جاء بمفردة تنطوي على كل تلك المعاني، وتزيد عليها، تستوعب الحاضر من أحداث، مرتسمةً بدقة صورة المنهي عنه، وتمتد بظلالها، وتتسع بمدلولاتها؛ لتشمل كلَّ ما يستجد من وقائع، وهي مع ذلك كاشفة عن أسباب النهي، حاملة دوافع الامتثال، وبواعث الإذعان؛ بما صورته من مدى الحمل والثقل الذي وقع عليه، وصار مدفونًا به؛ مما يجعله مقهورًا، مغلوبًا، منهزمًا، كما أعلنت العبء النفسي الذي أحاط به كإحاطة السوار بالمعصم؛ فلا فكاك منه.

ومن خلال هذا التصوير المحكم؛ تجد النفوس السليمة مبتغاها في الابتعاد عن المنهي، وتنصاع طواعية لمقتضاه؛ فتؤتي المعالجة الإلهية أكلها، وتحقق مرماها، وتجنى ثمارها، وتنتقش في القلوب والنفوس والعقول أبلغ آثارها، وأسمى مقاصدها، وأرقى أهدافها، وأبدع غاياتها. وهنا تستشعر النفوس أثر التقويم الإلهي، ويعلن سمو المعالجة الربانية، والمواجهة السماوية.

المسألة السادسة: الحث على الامتثال لموجب التشريع الإلهي:

هذا، وفضلا عمَّا سبق فإنَّه لَمَّا كان مساق الآية: النهي عمَّا من شأنه النيل من النفس البشرية؛ فقد جاءت المفردة مستجيبةً لسياقها، مصبوغةً بطابع مقامها، متسقةً مع عناصر نظمها، مفعمةً ببواعث النهي، موشحةً بضروب التحذير، مسلحةً بفنون الوعيد، مكسوةً بأسباب الحثِّ على الاجتناب؛ حيث قد حملت في مطاويها من: صدق الدلالات، وسني الإشارات، وعميق الإيحاءات، ما يكشف عن حقيقة قبحها، وبواعث اقترافها، وسلبيات آثارها، وبيان سوء مآلها.. وغير ذلك كما تقرَّر؛ فكانت بذاتها عنوانًا زاجرًا عن اقترافها، وبنفسها محرضةً على هجران مظاهرها، ومن ثَمَّ فتعينت في ساحة نظمها، وتمكنت في ميدان مقامها؛ إذ كانت جندًا تجوبه متسلحةً بسيوف الحجة، متقلدةً بدروع البرهان؛ فإذا هي منتصرة على ما سواها ممَّا هو قريبٌ منها في بابها-كما قد يتوهم-؛ ممَّا يحقِّقُ الإشادة ببلاغتها، ويُنَوِّهُ بسمو نظمها، ويقرُّ شاهدًا بإعجاز بيانها.

قلت: وقد أسهم التعبير بـ **(قَـوْمَ)** في إيضاح هذا المعنى، وتقريره؛ إذ انطوت بعنوانها على ما يستوجب شكر نعم الرحمن ﷻ، ويتوعد على عدم الإذعان، كما سيتجلى قريبًا.

المطلب الرابع: تتمات تفسيرية:

جاء النهي عن السخرية مسندًا إلى **(قَوْمَ)** فاعلًا ومفعولًا حكمًا، كما جاء معلَّلًا بما يحثُّ على الإذعان لمقتضاه، ويوجب الامتثال لمطلوبه، مستوعبًا حال الساخر والمسخور منه على السواء. وهذا

ما يناط توضيحه بالمسائل التالية.

المسألة الأولى: إيثار التعبير بعنوان (قَوْمٌ):

جاء التعبير بـ **(قَوْمٌ)** مستجيبًا لمقامه، متسقًا مع عامله، متناغمًا مع مقصده؛ فكان من أسراره- إضافة إلى ما سبق تقريره-: التذكير بما فيهم من مظاهر القوة التي تستدعي الشكر لله ﷻ، والامتثال لأمره، وتسخير نعمه ﷻ فيما يرضيه، لا فيما يستوجب غضبه، ويستجلب سخطه.

وفي هذا الصدد قال الإمام البقاعي مقدرًا: " **(قَوْمٌ)**، أي: ناسٌ فيهم قوة المحاولة، وفي التعبير بذلك هزٌّ إلى قيام الإنسان على نفسه، وكفِّها عمَّا تريده من النقائص؛ شكرًا لما أعطاه الله ﷻ من القوة. **(مِّن قَوْمٍ)**؛ فإنَّ ذلك يوجب الشرَّ؛ لأنَّ أضعف الناس إذا حُرِّكَ للانتقاص؛ قوي بما يثور عنده من حظِّ النفس " [1].

ومن ثَمَّ فيكون التعبير بـ **(قَوْمٌ)** قد تناسب مع النهي المذكور؛ إذ وعظ الساخر مذكرًا إياه بنعم الله ﷻ عليه، كما توعده بقبح ما سيترتب على فعله، مذكرًا بواقع الأمر وحقيقة الحال؛ إذ إن مَنْ يسخر منه هو- أيضًا- ممَّنْ يصدق عليهم عنوان **(قَوْمٌ)**؛ فيبلغ الحث على الامتثال مبلغه، وتتقرر الدعوة إليه على آكد وجه، وأبلغه!

المسألة الثانية: دلالة التنكير في المفردة (قَوْمٌ):

قال الإمام ابن عاشور: " تنكير **(قَوْمٌ)** في الموضعين؛ لإفادة الشِّيَاع؛ لئلَّا يتوهم نهي قومٍ معينين سخروا من قومٍ معينين. وإنَّما أسند **(يَسْخَرْ)** إلى **(قَوْمٌ)** دون أن يقول: لا يسخر بعضكم من بعضٍ؛ للنهي عمَّا كان شائعًا بين العرب، من سخرية القبائل بعضها من بعض؛ فوجه النهي إلى الأقوام. ولهذا- أيضًا-؛ لم يقل: لا يسخر رجلٌ من رجلٍ، ولا امرأةٌ من امرأةٍ. **ويفهم منه:** النهي عن أن يسخر أحدٌ من أحدٍ بطريق لحن الخطاب [2]. وهذا النهي صريحٌ في التحريم. وخصَّ النساء بالذكر مع أنَّ القوم يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام؛ دفعًا لتوهم تخصيص النهي بسخرية

(١) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٥ بتصرف يسير.

(٢) قيل: " لحن الخطاب: ما يدلُّ على مثله ". قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر، منصور بن مُحَمَّد المروزي: ٢٣٧/١. وقيل: "لحن الخطاب، أصله في اللغة: إفهام الشيء من غير تصريح ". شرح تنقيح الفصول، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي: صـ ٥٤. وقال الإمام السيوطي: " المفهوم: ما دَلَّ عليه اللفظ لا في محل النطق، وهو قسمان: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة. فالأول: ما يوافق حكمه المنطوق، فإن كان أولى؛ سمي فحوى الخطاب، وإن كان مساويا؛ سمي لحن الخطاب ". الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ١٠٦ بتصرف.

الرجال " [١].

قلت: وفيه من الحضّ على ترك السخرية من كلِّ مَنْ يتوقع صدورها منه، وسدًّا لبابها بما لا غاية وراءه؛ تقريرًا لشدة سوئها، وإعلانًا لوخيم أثرها، وتسجيلًا لشنيع آثارها، وإيذانًا باستقباحها من كلِّ فردٍ يقارفها؛ تتميمًا لمحاربتها، وحدًّا من وقوعها بما لا يخفى.

ومن ثَمَّ فتتجلَّى روعة التشريع الإلهيِّ الذي يحافظ على نفوس أتباعه، ويحترم خلجات دواخلهم، **ويتقرَّر**: أنَّ المنهي عنه إنما هو لصالح الجميع: فاعلًا، ومفعولًا به، فردًا، ومجتمعًا؛ فيضفي ذلك التشريع بظلاله العلاجية على سماء المجتمع؛ لتمطره بوابل الطمأنينة، وتغمره بفيض الرحمة، وعبير الأمان، وبواعث الاستقرار، ودواعي الاتحاد؛ ليعيش في سلام، وتوائم بكلِّ أركانه، وفي شتى أحواله.

فالحق ﷻ يحافظ بذلك التشريع على لُحْمَةِ المجتمع، ويصون أواصر اتحاده، ويدعم مقومات صفه رصًّا كالبنيان، فلله دَرُّ ذلك القرآن المعجز النَّظم المحكم البيان!

المسألة الثالثة: تصحيح التصور الإيماني بمجيء التشريع مشفوعًا بالتعليل:

هذا، ولا يقف التقويم الإلهيّ والعلاج الربانيّ عند هذا الحدِّ، بل قد جاء التشريع مشفوعًا بالتعليل عن النهي المذكور، مصححًا التصور الإيمانيَّ في نفوس أتباعه؛ إمعانًا في تحقق العلاج، وإبرازًا لمظاهر العناية الإلهيَّة، ووجوه التربية الربانيَّة؛ بإعلان المقياس الذي عليه يدور التفضيل، ويَتَأَتَّى به التكريم، مشوبًا بدوافع التنفير، ومطعمًا بصور التبشيع من الوقوع في الجرم المذكور، منطويًا على ألوان التسلية المنشودة؛ فقال ﷻ على سبيل الاستئناف بالعلة الموجبة للنهي: **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ)** [الحجرات: ١١].

قلت: قد جاء هذا التعليل متمكنًا في نظمه، بديعًا في سبكه، معجزةً بيانيةً في مقامه؛ فكان هو الأدخل في مواجهة فعل السخرية، ومحاربته، والأكثر اتساقًا للردِّ على الساخر، ومواجهته، والأبلغ في تسلية المسخور منه، وتحقُّق بشارته.. إلخ. **وهذا إجمالٌ يُعْنَى بتفصيله النقطتان التاليتان:**

النقطة الأولى: وهي الردُّ على الساخر، ومواجهته: وإنَّما يتمُّ الردُّ وتحصل المواجهة في ظلِّ مبعث السخرية عند طرفيها، وقد تبين أنَّها **بالنسبة للساخر** صادرةٌ قلة إيمانٍ، وعن تكبّرٍ، يستتبعه احتقار الآخرين، أو ناميةٌ عن الشعور بضعةٍ يحاول الخلاص منها؛ بإسقاطها على غيره؛ إرضاءً لنفسه.

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٨ بتصرف.

وبالنسبة للمسخور منه تنشأ عن أحوالٍ ظاهرةٍ استدعتها؛ كأن يكون ذا عاهةٍ، أو رَثَّ الحال، أو فقيرًا، وقد تكون منبعثةً عن أفعالٍ منه؛ كأن يرتكب ذنبًا، أو يسبق إيمانه كفرٌ، أو يتوفر له أشخاصٌ يعيَّر بهم.. كما تقرَّر آنفًا.

ومن ثَمَّتْ فيأتي التعليل متناغمًا مع كلِّ تلك الاعتبارات، مواجهًا لها على أتمِّ وجهٍ، وأبلغ بيانٍ؛ حيث قد تبين في ضوئه قدرة الله ﷻ ونافذ إرادته في ضوء جمعه المتقابلات في المحلِّ الواحد؛ إذ قد جمع حسن الهيئة والقوة الظاهرة، مع قبح الصورة الباطنة والضعف النفسي الكامن داخلًا، كما جمع قبح الهيئة والنقص والضعف الظاهري مع الجمال النفسي، والخير الباطني. ومَنْ تجلَّت قدرته ﷻ على ذلك لهو قادرٌ على قلب الأحوال، وتبدل الشئون، وذلك وفق مقتضيات الحكمة، ومستدعيات المصلحة، وفيه من الردِّ الضمني على الساخر وتسلية المسخور ما لا غاية وراءه!

لاسيما وأنَّ في تنوع ظروف البشر تذكيرًا بتصريف شئونهم، وتقليب أحوالهم، وإعلانًا لنفوذ إرادة الله ﷻ فيهم فعلًا وتركًا.. إلخ. وإذا تجلَّت تلك الشئون الإلهية، ومطلق القدرة، ونافذ الإرادة؛ فليحذر الساخر من فعله؛ فإنَّ مَنْ تعلَّقت إرادة الله ﷻ به فقرًا أو مرضًا أو ضعفًا.. وغير ذلك حالًا، فقد تتعلق بالساخر مآلا.

ومن هنا فيَتَسَنَّى الردُّ على الساخر ومواجهته في ضوء معاملته بنقيض قصده؛ كسرًا له، وتشنيعًا لجرمه، كما يتصوَّر في تحذيره من قبح المآل، وتذكيره بما قد يؤول إليه الحال؛ إذ إنَّ الكلَّ بيد الله ﷻ، وتحت قدرته، وهو ﷻ يتصرف في ملكه كيفما يشاء، ويحكم بما يريد؛ فلا تأمن أيها الساخر؛ فقد تدور الدائرة عليك، وتتوافد سوء العواقب إليك.

ومن ثَمَّ الإمام الرازي معللًا: " **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ)**؛ كسرًا له، وبغضًا لنكره " [1].

وقال مبرزًا حيثية التكبر ومواجهتها: " في قوله ﷻ: **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ) حكمة**، وهي: أنَّه وجد منهم النكر الذي هو مفض إلى الإهمال، وجعل نفسه خيرًا منهم، كما فعل إبليس؛ حيث لم يلتفت إلى آدم عليه السلام، وقال: **(أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ)** [الأعراف: ١٢]؛ فصار هو خيرًا. ويمكن أن يقال: المراد من قوله: **(أَن يَكُونُواْ):** يصيروا؛ فإن مَنِ استحقر إنسانًا؛ لفقره، أو وحدته، أو ضعفه؛ لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير، ويضعف هو ويقوى الضعيف" [2].

وقال الإمام البقاعي مبينًا وجه التناسب: " لَمَّا كان الذي يقتضيه الرأي الأصيل: أنَّه لا يستذل

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٠٨.

(٢) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٨ بتصرف يسير.

الإنسان إلَّا مَنْ أمن أن يصير في وقت من الأوقات أقوى منه في الدنيا، وفي الآخرة؛ علَّلَ بقوله: **(عَسَىٰٓ)**، أي: لأنَّه جديرٌ، وخليقٌ لهم **(أَن يَكُونُواْ)**، أي: المُسْتَهَزَأ بهم **(خَيْرًا مِّنْهُمْ)**؛ فينقلب الأمر عليهم، ويكون لهم سوء العاقبة " [١].

" **ويقال:** ما استصغر أحدٌ أحدًا إلَّا سلِّط عليه. ولا ينبغي أن يعتبر بظاهر أحوال الناس؛ فإنَّ في الزوايا خبايا. والحقُّ يستر أولياءه في حجاب الضِّعة. وقد جاء في الخبر: «ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين [٢] لا يؤبه له، لو أقسم على الله؛ لأبرّه» [٣] " [٤].

وبناءً عليه فقد أثمر التعليل أثرًا تفسيريًا بعيد المدى، يرجع إلى أنَّ " مقتضاه عدم جواز الاستهزاء مطلقًا؛ لعدم الاطلاع على الخيرية بخفائها؛ لكونها أمرًا قلبيًّا؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يسخر من أحدٍ " [٥].

وقال الزمخشري: " لقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم، وتصونهم من ذلك، أن جاء عن بعضهم: لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا؛ فضحكت منه؛ خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه. وعن ابن مسعود ﷺ: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلبٍ؛ لخشيت أن أحوَّل كلبًا [٦] " [١].

---

(١) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٥ بتصرف يسير.

(٢) قال الخليل: " (طمر): طَمَرَ فلانٌ شيئا، أي: خَبَّأَهُ حيثُ لا يُدْرَي. والمَطمورةُ: حُفْرة، أو مكانٌ تحت الأرض، قد هيئ خفيّا، يُطمَرُ فيه طعام أو مال. والطِّمْرُ: الثّوبُ الخَلَق. والطُّمرورُ: نعت الفَرَس الجواد ". العين (طمر): ٧/ ٤٢٤.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي بلفظه، وتتمته: (مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ): باب، باب مناقب البراء بن مالك ﷺ، من حديث أنس ﷺ، برقم (٣٨٥٤). قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ". سنن الترمذي: ٦٩٢/٥. وقال الإمام السيوطي شارحًا: "ذي طمرين: تثنية طمر، وَهُوَ الثوب الخلق. لا يؤبَهُ لهُ، أي: لا يبالى به، ولا يلتفت إليه؛ لحقارته". قوت المغتذي على جامع الترمذي، لجلال الدين السيوطي: ٢/ ١٠٣٣. وأصله عند مسلم بلفظ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ؛ لَأَبَرَّهُ». كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين، من حديث أبي هريرة ﷺ، برقم (٢٦٢٢). صحيح مسلم: ٢٠٢٤/٤.

(٤) لطائف الإشارات: ٣/ ٤٤٢.

(٥) الحواشي التوضيحية على حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي: ١٨/ ١٣٣ بتصرف.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة: كتاب الأدب، ما قالوا في النهي والوقيعة في الرجل والغيبة، برقم (٢٥٥٤٦)، ولفظه: " حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: " لَوْ سَخِرْتُ مِنْ كَلْبٍ؛ لَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَلْبًا ". الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة: ٥/ ٢٣١. قال الإمام الشوكاني: " هذا غير مرفوع، وهو منقطع-أيضًا-؛ لأن إبراهيم لم يدرك عبد الله ﷺ". الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني: صـ ٢٢٩ بتصرف يسير.

وفي هذا الشأن قال الإمام القونوي: " الاعتبار للقلوب، وما في الصدور، ولعله أطيب نفسًا، والاطلاع عليه إمَّا متعسرٌ، أو متعذرٌ؛ فالكفُّ عن كلِّ أحدٍ واجبٌ، بل عن كلِّ حيوانٍ كما مرَّ من قصة الكلب " (٢).

وبالتالي يكون التعليل قد أسهم في الرد على الساخر من منطلق تكبره، كما تجلى الردُّ عليه من منطلق شعوره بالضعة؛ من خلال إسناد الخيرية لَمَنْ سخر منه معاملًا إياه بنقيض قصده، مواجهًا له بما استقر في نفسه، وحاول إخفاءه، صادمًا له بما هرب منه كما تبين.

النقطة الثانية: وهي تسلية المسخور منه، وتحقُّق بشارته: فترتسم فيما أعلنه هذا التعليل من البشارة، وانطوى عليه من أبلغ الردود عنهم، وأقوم السبل في تطييب نفوسهم. **وفي هذا الشأن قال الإمام الماوردي مقدرًا:** " **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ)**: عند الله تعالى. ويحتمل: خيرًا منهم معتقدًا، وأسلم باطنًا " (٣).

وقال الزمخشري مبينًا وجه النظم: "كلامٌ مستأنفٌ، قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه، وإلَّا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بـ(الفاء). **والمعنى:** وجوب أن يعتقد كلُّ أحدٍ أنَّ المسخور منه ربما كان عند الله تعالى خيرًا من الساخر؛ لأنَّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال، ولا علم لهم بالخفيات؛ وإنَّما الذي يزن عند الله تعالى: خلوص الضمائر، وتقوى القلوب، وعلمهم من ذلك بمعزلٍ؛ فينبغي ألَّا يجترئ أحدٌ على الاستهزاء بمَنْ تقتحمه عينه؛ إذا رآه رَثَّ الحال، أو ذا عاهةٍ في بدنه، أو غير لبيقٍ في محادثته؛ فلعله أخلص ضميرًا، وأتقى قلبًا ممَّنْ هو على ضدِّ صفته؛ فيظلم نفسه بتحقير مَنْ وقره الله ﷻ، والاستهانة بمَنْ عظمه الله ﷻ " (٤).

وقال الإمام ابن عاشور مصرّحًا بفائدتها: " جملة: **(عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ)** مستأنفةٌ معترضةٌ بين الجملتين المتعاطفتين، **تفيد** المبالغة في النهي عن السخرية؛ بذكر حالة يكثر وجودها في المسخورية؛ فتكون سخرية الساخر أفظع من الساخر؛ لأنَّه يثير انفعال الحياء في نفس الساخرة، بينه وبين نفسه " (٥).

---

(١) الكشاف: ٤/ ٣٦٨ بتصرف يسير.

(٢) حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: ١٨/ ١٣٤ وما بعدها بتصرف يسير.

(٣) تفسير الماوردي: ٥/ ٣٣٢.

(٤) الكشاف: ٤/ ٣٦٨ بتصرف يسير.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٧ بتصرف يسير.

قلت: ومن ثُمَّة فأتت العناية الربانية متدخلةً؛ لتصحيح الموازيين، وتقويم اعوجاجها، ووضع الأمور في نصابها، فيرد العلاج على نفسيةٍ منهزمةٍ، مسليًّا لها، مبشرًا إياها، رافعًا من معنوياتها، آخذًا بيدها للخروج من بئر الظلم، والقهر، مشرقًا بنور الحقيقة في سماء الدجى، منبعثًا بالأمل في الآفاق العلى.

قال الشيخ الشعراوي مقرّرًا هذا المعنى: " لَمَّا صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية؛ **عوَّضهم الله ﷻ تكريمًا ونعيمًا**، وهذه مسألة يجب ألَّا يغفل عنها المؤمن؛ حين يسخر منه أعداءُه، عليه أن يتذكر عطاء ربه ﷻ، وجزاء صبره، وإنْ كان الساخر منك عبدًا، له قدرته المحدودة، فالمكرِم لك ربك ﷻ بقدرةٍ لا حدودَ لها، ولك أن تقارن إذن بين: مشقة الصبر على أذاهم، ولذة النعيم الذي تجده بعد ذلك جزاء صبرك " (١).

والخلاصة:

قلت: تَمَهَّدَ مما سبق: أنَّ التشريع الإلهيَّ، والنهي الربانيَّ، قد جاء صادقًا بفرائد نظمه على ما حدث في ساحة المجتمع من وقائعَ، وأحداثٍ، عارضًا لمجرياتها في البيئة الإسلامية، مواجهًا خللًا اجتماعيًا، ومستهدفًا بعدًا بشريًا، ومصوبًا جانبًا نفسيًا، مقدمًا له العلاج الناجع، بأسلوبٍ معجزٍ، ضمن رسالةٍ سماويةٍ، قد قصتها لنا مفردة قرآنية، بما انطوت عليه من دلالاتٍ صادقةٍ، وما حملته في أعماقها من معانٍ واقعيةٍ موحيةٍ، وما لزمها من استعمالاتٍ عميقةٍ، وما استصحبته من إيحاءاتٍ بديعةٍ، وفاضت به من إشاراتٍ بعيدةٍ، هي الأدخل في الإفصاح عن حقيقة المفردة، والأبلغ في ارتسام صورها، واستيعاب مظاهرها، والأدخل في الإعراب عن سوء آثارها، والأظهر في التنفير عنها، والأشد في التحذير منها.. إلخ؛ ومن ثَمَّ فيبلغ تمكن المفردة في سبكها مبلغه، وتتجلَّى أسرارها في النظم القرآنيّ، وتتلألأ مقتضيات إعجازها البيانيّ على آكد وجه، وأبلغه!

(١) تفسير الشعراوي: ١٦/ ١٠١٦٩ بتصرف يسير.

المبحث الثاني

النهي عن اللمز

أتبع الحق ﷻ النهي عن السخرية بالنهي عن اللمز مسلطًا على عنوان الأنفس؛ فقال ﷻ عطفًا على ما تقدَّم: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**. وفيه مطالب، يَتَسَنَّى بيانها على النحو التالي.

المطلب الأول: مناسبة الجملة لما قبلها:

قال الإمام البقاعي مبينًا وجه النظم، وموجهًا إيثار عنوان النفس: " لَمَّا كانت السخرية تتضمن العيب، ولا يصرح فيها، وكان اللمز العيب نفسه، رقي الأمر إليه [(١)]؛ فقال: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ)** [الحجرات: ١١]، أي: تعيبوا على وجه الخفية[(٢)] **(أَنفُسَكُمْ)**: **بأن** يعيب بعضكم بعضًا بإشارةٍ أو نحوها، فكيف إذا كان على وجه الظهور [(٣)]؛ فإنكم في التواصل والتراحم كنفسٍ واحدةٍ، يعمل الإنسان ما يعاب به؛ فيكون قد لمز نفسه، **أو** يلمز غيره؛ فيكون سببًا لأن يبحث عن عيوبه؛ فيلمزه؛ فيكون هو الذي لمز نفسه " [(٤)].

وقال الإمام الألوسي مبينًا العلاقة بين النهيين: " هذا غير النهي السابق، وإن كان كلٌّ منهما مخصوصًا بالمؤمنين بناءً على أن السخرية: احتقار الشخص مطلقًا على وجهٍ مضحكٍ بحضرته، واللمز: التنبيه على معايبه سواء أكان على مضحك أم لا؟ وسواء أكان بحضرته أم لا، وجعل عطفه عليه من قبيل **عطف العام على الخاص**؛ لإفادة الشمول، ولا يتم إلَّا إذا كان التنبيه المذكور احتقارًا، ومنهم مَنْ يقول: السخرية: الاحتقار، واللمز: التنبيه على المعايب، أو تتبعها، والعطف من قبيل **عطف العلة على المعلول**. وقيل: اللمز: مخصوص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالإشارة؛ فهو من قبيل **عطف الخاص على العام**؛ لجعل الخاص كجنسٍ آخر؛ مبالغةً " [(٥)].

قلت: الظاهر أن اللمز أخص من السخرية، وأن نظمه في سلكها من قبيل عطف الخاص على العام؛ لعلة تستوجبه، وهي المبالغة، كأنه جنس آخر؛ اتساقا لمبدأ الترقي في سلك المنهيات. وهذا ما

(١) قلت: هذا تصريح من الإمام بأن النظم على الترقي، وعليه فاللمز أخص من السخرية.

(٢) قلت: هذا التقدير فيه نظر؛ إذ المشهور أن اللمز يكون مباشرةً، ومواجهةً، وشهودًا، كما سيتبين من دلالته.

(٣) قلت: ومفاده– أيضًا–: أن النظم على الترقي؛ إذ إنه يلمح إلى التنابز بالألقاب، ويمهد له مستهجنًا لصدوره.

(٤) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٦ بتصرف يسير.

(٥) تفسير الألوسي: ١٣/ ٣٠٤ وما بعدها بتصرف.

صرح به الإمام البقاعي بقوله: "رقى الأمر إليه" [١]؛ لجعله السخرية متضمنةً العيب دون تصريحٍ به، في حين جعل اللمز هو العيب نفسه، وبونٌ بعيدٌ بين ما يتضمن الشيء، وبين ما يكون هو ذات الشيء، ملمحًا من ورائه إلى أنَّ اللمز أفدح من السخرية أثرًا، وأشد وقعًا.

وتحقيق القول: أن المفردتين قد اجتمعتا في بعض الدلالات، إلَّا أن الحال أن لكل منها هويتها الفذة، ودلالتها المستقلة، ولا يمكن القول: بأن أي مفردة من قبيل الأخرى، أو بمعناها على إرادة المساواة بينهما، وهذا ما يفهم في ضوئه تقرر إعجازها نظمًا، المبني على استحكامها سبكًا، وتعينها مقامًا، وتمكنها سياقًا، واقتضاؤها حالًا.

وبناءً عليه لا بدَّ من وجود فرقٍ بل فروقٍ بين معنى: السخرية، واللمز، وهذا ما سيتجلى في ختام هذا المبحث.

المطلب الثاني: حقيقة اللمز:

هذا، وقد آثر التعبير بهاتيك المفردة، دون غيرها، ولا يكون هذا إلَّا لوظيفةٍ تؤديها، وتعجز عنها أيُّ مفردةٍ أخرى، ممَّا هو من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، ومن ثَمَّ فتتجلى بلاغتها، ويتقرَّر سر إيثارها، ويعلن وجه تمكنها في مقامها، ويكشف حيثية اصطفائها في صرح سبكها، في ضوء الوقوف على مدلولها اللغوي، واستعمالها العربي، وبيانها التفسيري.. إلخ ممَّا هو من مقدمات إثبات الإعجاز البيانيّ في النظم القرآنيّ. وهذا ما يناط تفصيله بالمسائل التالية:

المسألة الأولى: حقيقة المفردة القرآنية في ضوء الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال الخليل: " (لمز): اللَّمْزُ كالغمز في الوجه، تَلْمِزُه بفيك بكلام خفّي. ورجل لُمَزة: يعيبك في وَجْهك لا من خَلْفك، وهو من اللَّمْز. ورجلٌ هُمَزة: يعيبك من خلفك " [٢]. **وعند الإمام الأزهري**: " اللُّمَزة: الَّذِي يَعتاب الناسَ، ويغضُّهُم. والأصلُ فِي اللّمْزِ: الدَّفْعُ. يُقَال: لَمَزْتُه؛ إِذا دفعتَه. واللَّمْزُ: العَيْب. وقيل: اللَّمَّاز والغَماز: النَّمام " [٣].

وقال ابن فارس مؤصلا: " (لَمَزَ): (اللَّامُ)، وَ(الْمِيمُ)، وَ(الزَّاءُ): كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ اللَّمْزُ، وَهُوَ

(١) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٦ بتصرف.
(٢) العين (لمز): ٧/ ٣٧٢ بتصرف.
(٣) تهذيب اللغة (لمز): ١٣/ ١٥١ بتصرف.

الْعَيْبُ. يُقَالُ: لَمَزَ يَلْمِزُ لَمْزًا. وَرَجُلٌ لَمَّازٌ، وَلُمَزَةٌ، أَيْ: عَيَّابٌ " [1]. **وقال الإمام الراغب**: "اللَّمْزُ: الاغتياب، وتتبّع المعاب " [2]. " وَيُقَالُ: لَمَزَه يَلْمِزُه لَمْزا؛ إذا دَفَعَهُ، وَضَرَبَهُ. واللَّمْزُ: الْعَيْبُ فِي الْوَجْهِ، وأَصله: الإشارة بِالْعَيْنِ، والرأْس، وَالشَّفَةِ، مَعَ كَلَامٍ خَفِيٍّ، وَقِيلَ: هُوَ الِاغْتِيَابُ. واللَّمْزُ: الْعَيْبُ، وَالْوُقُوعُ فِي النَّاسِ " [3]. **وقال الإمام العسكري**: " الفرق بين الهمز واللمز: الهمز هو أن يهمز الإنسان بقولٍ قبيحٍ من حيث لا يسمع، أو يحثه، ويوسده على أمرٍ قبيحٍ، أي: يغريه به، واللمز: أجهر من الهمز، وفي القرآن: **(هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ)** [المؤمنون: ٩٧]، ولم يقل: (لمزات)؛ لأن مكايدة الشيطان خفية. قيل: المشهور عند الناس: أن اللمز: العيب سرًا. والفرق بين الهمزة واللمزة: قيل: هما بمعنًى. وقيل: بينهما فرقٌ؛ فإن الهمزة: الذي يعكس بظهر الغيب. واللمزة: الذي يعكس في وجهك. وقيل: الهمزة: الذي يؤذي جليسه بسوء لفظه. واللمزة: الذي يكثر عيبه على جليسه، ويشير برأسه، ويومئ بعينه " [4].

هذا، وقد اعترض الإمام الرازي على كون اللمز العيبَ سرًا قائلًا: " إن قيل: قد ذكرتم: أنَّ هذا إرشادٌ للمؤمنين إلى ما يجب أن يفعله المؤمن عند حضوره، بعد الإشارة إلى ما يفعله في غيبته، لكن قوله ﷻ: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ)**، قيل فيه: بأنه العيب خلف الإنسان، والهمز هو العيب في وجه الإنسان، نقول: ليس كذلك بل العكس أولى، وذلك؛ لأنا إذا نظرنا إلى قلب الحروف؛ دللن على العكس؛ لأن (لمز) قلبه (لزم)، و(همز) قلبه (هزم)، والأول يدل على القرب، والثاني على البعد، فإن قيل: اللمز هو الطعن، والعيب في الوجه؛ كان أولى " [5].

قلت: ما ذهب إليه الإمام الرازي له وجاهته، وتدعمه الدلالة الصوتية في حرفي البدء في كلا المفردتين؛ حيث يبدأ اللمز بـ (اللام)، والهمز بـ (الهاء)، وهي حرف أجوف، متصف باللين، والهشاشة [6]، فمخرجها وصفتها، يدلان على الخفاء والضعف، وهذا يناسب ضعف أثر الهمز؛ لعدم العلم به غالبًا، وانعدام المواجهة فيه.

---

(١) مقاييس اللغة (لمز): ٥/ ٢٠٩ بتصرف.
(٢) المفردات (لمز): صـ ٧٤٧.
(٣) لسان العرب (لمز): ٥/ ٤٠٦ وما بعدها بتصرف.
(٤) معجم الفروق اللغوية: صـ ٥٥٩ بتصرف يسير.
(٥) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٩.
(٦) ينظر العين: ١/ ٥٤.

أمَّا (اللام): فتخرج من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه مع ما يليه من الحنك الأعلى، وينتقل فيها اللسان من مخرجها منحرفًا إلى مخرجٍ آخر كإشارةٍ إلى تحقق الأثر وانتقاله. كما **أن صفتها**: التوسط، وهو اعتدال الصوت عند النطق بالحرف؛ بحيث يخلو من القوة والضعف [(١)]. مما يتقرر في ظله: أنها بالنسبة إلى حرف (الهاء) أكثر قوةً، وأظهر مخرجًا؛ لقربها إلى حيث مظنة الظهور والتجلّي، وهذا يتناسب مع فعل اللمز القائم على المواجهة، والتصريح.

ومن ثَمَّتَ فقد أسهمت الدلالة الصوتية، وخصائص أحرف الكلمة الدلالية، في تحقيق القول في الفرق بين المفردتين، كما تظاهرت مع الدلالة اللغوية، وتلاقت معها في تتميم المعنى، وإيضاح المراد.

وفي كلام الإمام ابن عطية ما يؤيد ذلك؛ حيث قال: " هو- يريد: اللمز- مما يقتضي المماسة " [(٢)]. ممَّا يبرز معنى المواجهة، والمباشرة، ولو بالإشارة، والإيماء، ويدفع وجه السريَّة عن الفعل.

وحقيقٌ بالتقرير: أنَّ الاعتماد على الدلالة الصوتية لأحرف المفردة القرآنية ليس محلًا للإنكارٍ، أو معرضًا للارتياب؛ لتقرر موقعه في التراث العربي، ولكونه شهادةً على جليل مكانة اللغة العربية، وتنويهًا ببعض حيثيات اصطفائها.

وفي هذا الشأن قال ابن جني معنونًا (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني): " أمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فبابٌ عظيمٌ واسعٌ، ونهجٌ متلئبٌ عند عارفيه مأموم. وذلك أنَّهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها؛ فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر ممَّا نقدره، وأضعاف ما نستشعره... وهذا أمر إذا أنت أتيته من بابه، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله؛ أعطاك مقادته، وأركبك ذروته، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه. وإن أنت تناكرته، وقلت: هذا أمرٌ منتشرٌ، ومذهبٌ صعبٌ موعرٌ؛ حرمت نفسك لذته، وسددت عليها باب الحظوة به " [(٣)]. **ثم يكمل الإمام كلامه قائلًا**: " نعم، ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع. وذلك أنَّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها،

---

(١) قال ابن الجزري ناظمًا: (والطاء والدال وتا منه ومن.. عليا الثنايا والصفير مُسْتَكِنْ). وقال في صفتها: (وَبَيْنَ رِخْوٍ وَالشَّدِيدِ "لِنْ عُمَرْ".. وَسَبْعُ عُلْوٍ "خُصَّ ضَغْطٍ قِظْ" حَصَرْ). منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه، لابن الجزري: صـ ٩ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ١٥٠ بتصرف.

(٣) الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي: ٢/ ١٥٩ – ١٦٤ بتصرف.

ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه؛ سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب.. ثم ساق الأمثلة على ذلك معقبًا بتساؤله: فأيُّ شبهة تبقى بعده! أم أيُّ ريب يعرض على مثله! هذا هو محجة ذلك ودليل مذهبه، فإن أنت رأيت شيئًا من هذا النَّحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه، فأحد أمرين: إمَّا أن تكون لم تنعم النَّظر فيه؛ فيقعد بك فكرك عنه، أو لأنَّ لهذه اللغة أصولًا وأوائلَ قد تخفى عنَّا، وتقصر أسبابها دوننا، أو لأنَّ الأول وصل إليه علمٌ لم يصل إلى الآخر " [(١)].

قلت: تَمَهَّدَ مما سبق أنَّ الدلالة اللغوية قد أثمرت المعاني التالية: العيب ويكون في الوجه، الغيبة، الدفع، النميمة، تتبُّع المعاب، والبحث عنها، الضرب، الإشارة بالرأْس، والشفة، الإيماء بالعين مع كلامٍ خفيٍّ، الوقوع في الناس، والغضَّ منهم، التفوه بكلامٍ قبيحٍ.. إلخ.

المسألة الثانية: حقيقة المفردة عند السادة المفسرين:

هذا، وقد تجلَّت الدلالات اللغوية عند السادة المفسرين، ممثلةً في أكثرها استعمالًا، وأشهرها ذيوعًا، مفعمةً بنوعٍ من التطور الدلالي، والارتقاء الاستعمالي، والتوجيه البياني، بإضافة المتعلقات، وإبداع التقديرات، وثراء التأويلات.

فقال الفراء مقدرًا: " لا يَعِبْ بعضكم بعضًا " [(٢)]. **وتبعه الأئمة:** النحاس، والبيضاوي، وأبو حيان [(٣)]، وأ.د/ وهبة الزحيلي [(٤)]، وغيرهم [(٥)].

وقال الزجاج: " اللمز، والهمز: العيب، والغض من الإنسان. فأعلمَ اللَّهُ ﷻ أن عيب بعضهم بعضًا لازمٌ لهم، يلزَمُ العائِبَ عيبُ المعيب " [(٦)].

وقال الإمام الطبري مؤولًا: " قوله ﷻ: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**، يقول تعالى ذكره: ولا يعب

(١) الخصائص: ٢/ ١٦٤- ١٦٦ بتصرف.

(٢) معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء: ٣/ ٧٢.

(٣) ينظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس أحمد بن مُحَمَّد: ٥/ ٢٥٨. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي: ٥/ ١٣٦. البحر المحيط في التفسير: ٩/ ٥١٧.

(٤) مضيفًا: " ولا تعيبوا؛ فتعابوا ". التفسير المنير: ٢٦/ ٢٤٧.

(٥) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، لأحمد بن مُحَمَّد بن عماد الدين بن الهائم: صـ ٢٩٨. والكليات: صـ ٩٧٧.

(٦) معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج: ٥/ ٣٦.

بعضكم بعضًا أيُّهَا المؤمنون، ولا يطعن بعضكم على بعضٍ " [١]. **وتبعه الزمخشري** [٢].

وقال الإمام الماتريدي: " قوله ﷻ: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**، اللمز: هو الطعن. ثُمَّ منهم مَنْ يقول: هو الطعن باللسان. ومنهم مَنْ يقول: بالشدق والشفة. ومنهم مَنْ يقول: بالعين، **وحاصله:** هو الطعن فيه. وقيل: اللمز: هو العيب، أي: لا تعيبوا. وقيل: هو شبه العيب " [٣].

وقال الإمام الماوردي مأثورًا: " اللمز: العيب. وفي المراد به هنا **ثلاثة أوجه: أحدها:** لا يطعن بعضكم على بعضٍ، قاله ابن عباس ﭫ، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير. **الثاني:** لا تختالوا؛ فيخون بعضكم بعضًا، قاله الحسن. **الثالث:** لا يلعن بعضكم بعضًا، قاله الضحاك " [٤]. **وتبعه الإمام العز بن عبد السلام** [٥].

وقال الإمام ابن عطية مفصلًا: " **(تَلْمِزُوٓاْ)**، معناه: يطعن بعضكم على بعضٍ بذكر النقائص ونحوه، وقد يكون اللمز بالقول، وبالإشارة، ونحوه، مما يفهمه آخر، والهمز لا يكون إلَّا باللسان. وحكي: أن اللمز: ما كان في المشهد، والهمز: ما كان في المغيب. وقيل: الهمز: أن يعيب حضرةً، واللمز: في الغيبة " [٦]. **وتبعه الإمام أبو حيان** [٧]، و **أ.د/ وهبة الزحيلي** [٨].

وقال الإمام الرازي مفرقًا بين الهمز واللمز: " اللمز: الطعن، والمراد: الكسر من أعراض الناس، والغض منهم، والطعن فيهم. وللمفسرين ألفاظٌ، **أحدها:** الهمزة المغتاب، واللمزة العياب. **وثانيها:** الهمزة باليد، واللمزة باللسان. **وثالثها:** الهمزة بالمواجهة، واللمزة بظهر الغيب. **ورابعها:** الهمزة جهرًا،

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢/ ٢٩٨.

(٢) ينظر الكشاف: ٤/ ٣٦٩.

(٣) تفسير الماتريدي= تأويلات أهل السنة، لمحمد بن مُحَمَّد بن محمود، أبي منصور الماتريدي: ٩/ ٣٣٤ بتصرف يسير.

(٤) النكت والعيون: ٥/ ٣٣٢.

(٥) حيث قال: " اللمز: العيب، لا يطعن بعضكم على بعضٍ، أو لا يلعنه، أو لا يخونه ". تفسير العز بن عبد السلام= تفسير القرآن، لأبي مُحَمَّد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي: ٣/ ٢١٥.

(٦) المحرر الوجيز: ٥/ ١٥٠ بتصرف.

(٧) ينظر البحر المحيط في التفسير: ٩/ ٥١٧.

(٨) قائلًا: " اللمز: الطعن، والتنبيه إلى المعايب: بقولٍ، أو إشارةٍ باليد، أو العين، أو نحوها ". التفسير المنير: ٢٦/ ٢٤٧.

واللمزة سرًا بالحاجب والعين. **وخامسها**: الهمزة واللمزة الذي يلقب الناس بما يكرهون، ويدخل فيه مَنْ يحاكي الناس بأقوالهم، وأفعالهم، وأصواتهم؛ ليضحكوا. وقد حاكى أحدهم مشية النبي ﷺ؛ فنفاه عن المدينة، ولعنه. **وسادسها**: الهمزة: الذي يهمز جليسه يكسر عليه عينه، واللمزة: الذي يذكر أخاه بالسوء، ويعيبه. **وسابعها**: ما قيل لا بن عباس رضي الله عنهما: **(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)** [الهمزة: ١] مَنْ هؤلاء الذين يذمهم الله تعالى بالويل؟ فقال: هم المشاءُون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الناعتون للناس بالعيب. **ثُمَّ قال الإمام جامعًا**: واعلم أن جميع هذه الوجوه [(١)] متقاربةٌ، راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو الطعن، وإظهار العيب [(٢)] " [(٣)].

وقال العلامة أبو السعود: " اللمز: الطعن باللسان " [(٤)]. **وتبعه الإمامان: الألوسي** [(٥)]، **والمراغي** [(٦)].

وقال الإمام ابن عاشور مستخلصًا: " اللمز: ذكر ما يعده الذاكر عيبًا لأحدٍ مواجهةً، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحقٍ؛ فهو وقاحةٌ واعتداءٌ، وإن كان باطلًا؛ فهو وقاحةٌ وكذبٌ، وكان شائعًا بين العرب في جاهليتهم، ويكون بحالةٍ بين الإشارة والكلام، بتحريك الشفتين بكلامٍ خفيٍ، يعرف من المواجه به: أنه يذمُّ، أو يتوعد، أو يتنقص باحتمالاتٍ كثيرةٍ، وهو غير النبز، وغير الغيبة. وللمفسرين

---

(١) قلت: الصواب: (أَوْجُه)؛ لأن (أَفْعُل) أحد أوزان جموع القلة التي تصدق على ما دون العشرة، بخلاف (وجوه)؛ لأن (فُعُول) من أوزان جمع الكثرة.

(٢) ثم أكمل كلامه قائلًا: " ثُمَّ هذا على قسمين؛ فإنه إما أن يكون بالجد، كما يكون عند الحسد والحقد، وإما أن يكون بالهزل، كما يكون عند السخرية والإضحاك، وكل واحد من القسمين، إما أن يكون في أمرٍ يتعلق بالدين، وهو ما يتعلق بالصورة، أو المشي، أو الجلوس، وأنواعه كثيرة، وهي غير مضبوطة، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة، قد يكون لحاضر، وقد يكون لغائبٍ، وعلى التقديرين، فقد يكون باللفظ، وقد يكون بإشارة الرأس، والعين، وغيرهما، وكل ذلك داخل تحت النهي والزجر، إنما البحث في أن اللفظ بحسب اللغة موضوع لماذا؟ فما كان اللفظ موضوعًا له؛ كان منهيًا بحسب اللفظ، وما لم يكن اللفظ موضوعًا له؛ كان داخلًا تحت النهي بحسب القياس الجلي". مفاتيح الغيب: ٣٢/ ٢٨٤ بتصرف يسير.

(٣) تفسير الرازي: ٣٢/ ٢٨٣ وما بعدها بتصرف.

(٤) إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٢١.

(٥) ينظر روح المعاني: ١٣/ ٣٠٤ وما بعدها.

(٦) تفسير المراغي: ٢٦/ ١٣٢.

وكتب اللغة اضطرابٌ في شرح معنى اللمز، وهذا الذي ذكرته هو المنخول من ذلك " [١]. **وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:** " اللمز هو: الغمز بالمعايب، والتلويح بها " [٢].

قلت: ظهر من صنيع السادة المفسرين في تأويلاتهم، وتقديراتهم: أنَّ مفاد النهي عن اللمز يحمل في طياته النهي **عمَّا يلي:** العيب، الغض من الناس، والطعن فيهم، ويكون باللسان قولًا، وباليد فعلًا، وبالرأس، وبالشدق، وبالحاجب، وبالعين إشارةً، وشهودًا، ويتمحور في ذكر النقائص، والنعت بالمعايب، والتنبيه إليها، ونحوه، وبتحريك الشفتين بكلامٍ خفيٍ، يعرف منه المواجَه به: أنه يذم، أو يتوعد، أو يتنقص باحتمالاتٍ كثيرةٍ. كما يفيد معاني: الاختيال، والخيانة، واللعن، والكسر من أعراض الناس، والمباشرة بالمكروه: وقاحةً واعتداءً، والغمز بالمعايب، والتلويح بها. كما تَأَتَّى من تقديراتهم، وتأويلاتهم: إبراز صور العيب، وأنماطه، واستحضاره بأشهر مظاهره، وأسوأ آثاره.

المسألة الثالثة: التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية:

قلت: بالنظر في تحليل مادة (ل م ز) يتضح أنها حملت في مطاويها ما يكشف عن حقيقتها، ويبين بدقة المراد منها؛ فهي مفردة إلهية جاءت برسالة سماوية، مفتاح فهمها يكمن في لغتها العربية التي توفر لها من الخصائص، والميزات، ما لم يكن بحال للغة غيرها؛ فقد اتسمت بسعة مساحتها التعبيرية، ودقة مفرداتها، وندرة دقائقها المعنوية، وغير ذلك من أسرار [٣]. **وفي هذا الصدد قال أ.د/ فاضل السامرائي:** " لا شكَّ أنَّ الذي عنده شيءٌ من المعرفة باللغة العربية، وأسرارها؛ يعلم دقة هذه اللغة العظيمة، في التعبير عن المعاني، وسعة مساحتها التعبيرية، وقدرتها الهائلة على توليد المعاني، وعلى التوسع فيها، وتفوقها الفني؛ حتى تصل إلى درجة الإعجاز " [٤].

ومما سبق يتجلَّى أنه قد آل مجموع الأقوال السالفة إلى أن المراد بالنهي عن اللمز: النهي عن كل ما انطوت عليه مادة (ل م ز) من دلالاتٍ، وما استصحبته من استعمالاتٍ، وما أنيط بها من إيحاءاتٍ،

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٨.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٣/ ٤٤٨.

(٣) على نحو قد حققته في بحث بعنوان: وصف (عربي) في النظم القرآني "حقيقته، وأسراره". ينظر صـ ٦٢٥-٦٢٩.

(٤) الجملة العربية والمعنى، للأستاذ الدكتور/ فاضل صالح السامرائي: صـ ٥.

واكتنفها من إشاراتٍ، كلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام. ومن ثَمَّ فالقول بالتوسع في المعنى هنا، أمرٌ بدهيٌ، وشأنٌ طبعيٌ، لا يَتَسَنَّى إغفاله، ولا مناص من إقراره، وتطبيقه؛ فهو السبيل المتعين لفهم لبنات النظم، والطريق لولوج ساحة السبك، كما أنه الجواب المؤكد عن أسباب إيثار المفردة القرآنية في سياقها، والدليل على مدى تمكنها في نظمها، وبرهان إثبات وجه إعجازها.

وتفصيل ذلك يُعْنَى ببيانه النقاط التالية:

النقطة الأولى: الكشف عن كُنْهِ المفردة:

قد حملت تلك المفردة في مطاويها من الدلالات، واستصحبت من المعاني والإشارات، ما يكشف عن حقيقتها، ويميط اللثام عن مرادها، يتجلَّى ذلك في **ضوء مدلولات**: العيب، الذم، الطعن، الدفع، الضرب، النعت بالمعايب، والتلويح بها، وما في معناه من أنماط المباشرة بالمكروه، والمواجهة بما يُكْرَهُ ويسوءُ.

النقطة الثانية: ارتسام صور حقيقتها:

قد نظمت المفردة صور التحقق بمقتضاها، ممثلةً في معاني: التفوه بكلامٍ خفيٍ وقبيحٍ، ذكر الآخرين بالسوء، إكثار العيب على الجليس، الغمز بالمعايب، والتنبيه إليها، كما يتجلى ذلك في ظلِّ **مدلولات**: النميمة، الغيبة، التوعد، الاختيال، اللعن، والخيانة، فكلٌ ذلك من اللمز، ومَنْ تلبس بأيٍّ من تلك المعاني فقد صار لا محالة لامزًا.

النقطة الثالثة: الإيغال في الإعلان عن آلية التحقق بها:

هذا، وقد أومأ المدلول اللغوي، وأبعد الاستعمال العربي في إعلان آلية الكلمة القرآنية؛ إمعانًا في ارتسام حقيقتها، وتصويرًا لسبل التحقُّق التلبس بها، ويتمحور في ذكر النقائص، وتتبع المعاب، ويكون باللسان قولًا، وبالرأس، وبالشدق، وبالشفة، وبالحاجب، وبالعين: إشارةً، وإيماءً، وغمزًا، وتلويحًا، وتنبيهًا. كما يظهر في معنى: الوقوع في الناس، ومحاكاتهم في أقوالهم، أو أفعالهم، أو أصواتهم، بعثًا على الضحك منهم، ويدخل في ذلك جميع صور ذمهم التي تنال منهم معنويًا، وتسوءُهم نفسيًا.

النقطة الرابعة: الإيحاء بالأثر النفسي الباعث لها، والناجم عنها:

كما أسهم التعبير بمادة (ل م ز) في إعلان البواعث النفسية الدافعة إليها، والأثر النفسي الناجم عنها، ومشعرةً بسلبية التحقُّق بها، وإنما استمد ذلك من مطاوي المفردة الموحية، بما نظم في عقدها من إشاراتٍ معبرةٍ، والتي تفصح عن كراهيةٍ من اللامز، وتعرب عن سوء نفسه، وتسجِّل فساد طويته؛

ممَّا دفعه إلى إيذاء الملموز، والنيل منه، ومحاولة جرحه وطعنه، ومواجهته بما يضره، ويذمه، وينتقص منه، ويحط من شأنه، ويضع من قدره،

يتأكد ذلك في ضوء **مدلولات**: الطعن، الكسر من أعراض الناس، والغض منهم، الذم، اللعن.. وغيرها؛ ممَّا يكشف عن نفسيةٍ مظلمةٍ، وشخصيةٍ غير سويةٍ، ترضى لغيرها ما لا ترضاه لنفسها؛ إذ ليس من مسوغات العقول: أن يكسر المرء من عرضه، ويغض من قدر نفسه، ويحط من مقامه، ويضع من شأنه بقصد الذم والإيذاء، وعليه فكلُّ مَنْ يفعل ذلك إنَّما يفعله بقصد الإيذاء، والجرح، ومحاولة الطعن، والهدم؛ ومن ثَمَّ فيتأكد بلا ريب مرضه النفسي، وخروجه عن جادة الطريق السوي. **هذا من وجهٍ.**

ومن وجهٍ آخر: فقد مما سجَّلت مطاوي المفردة شديد وقع ذلك الحدث المشين، مرتسمةً أثر تلك الفعلة النكراء على النفسية، وبليغ أثرها. ويكفي في تصويره استحضار **مدلولات**: الكسر من أعراض الناس، وإيذائهم، والغض منهم، ولعنهم، وذمهم، وانتقاصهم، والوقوع فيهم... إلخ. ممَّا يحمل معالم الكشف عن خللٍ نفسيٍّ، وظلامٍ داخليٍّ عند الفعالين، بجانب كونه محقِّقًا أثرًا نفسيًّا بعيد المدى عند الملموزين. **وفي هذه المناسبة قال الإمام الرازي ملوحًا بأثرها**: " لا تعيبوهم طالبين حطَّ درجتهم، والغض عن منزلتهم " [(١)]. ممَّا يجلِّي وخيم مستتبعاتها في الإضرار بمعنى الأخوة الإيمانية التي تناهضها، ولا تستقيم معها، وتأبى الانتظام في سلكها، وتند عن الاستقرار في عقدها.

النقطة الخامسة: التحذير من التلبس بحقيقتها، والتنفير عن تعاطيها، ومقارفة صورها:

تبين ممَّا تقدَّم من كون هاتيك المفردة قد أسهمت في الكشف عن كنهها، وإبراز صورها، وإعلان آلية التحقُّق بها، وإظهار العطب النفسي المؤدي إليها، والأثر النفسي السلبي الناجم عنها- تبين بذلك أنها قد حملت بتلك الحيثيات ركائز التحذير منها، وملامح التنفير عنها، وارتسمت ذاتًا دعائم الإبعاد عن مقارفة شتى صورها؛ إذ قد حملت جلَّ ضروب الإيذاء المعنوي، وأشهر وجوه البلاء النفسي، ويكفي وسم فاعلها بكونه طاعنًا في النفوس ومكدرها، ومحطمًا للقلوب ومعكرًا صفوها، ومتسلطًا على أفراد البشرية ومنتهكًا آدميتها، وناشدًا الغض من نفسٍ بشرية، ومتقصدًا إذلالها، ومستهدفًا صنعةً إلهيةً ومحقرها.. وغير ذلك من الملامح السوداء التي تجلب السوء، وتحقِّق الكراهية، وتستحضر

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٨.

العداوة، وتضييع الثقة، وتفوت الأمان، وترفع الطمأنينة.. إلخ. ومن ثَمَّ فلم تقف المفردة عند حدِّ تعريفها؛ بل أمعنت مطاويها في التحذير منها، والتنفير عن مقارفتها؛ اتساقًا لمقام النهي، وتناغمًا مع مقتضى الحال، يتجلى ذلك – فضلًا عمَّا سبق – في إطار **مدلولات**: العيب في الوجه، والمباشرة بالمكروه: وقاحةً، واعتداءً، أو كذبًا...إلخ من المعاني التي تأباها الفطر السليمة، وتمجها العقول القويمة، وترفضها الأعراف المتينة.

أضف إلى ذلك أنه بمقتضى تلك المعاني يتأكد وخيم الأثر المترتب عليها، فلم يقف الملموزون مكتوفي اليدين، بل سيبادرون بالردِّ؛ ومن هنا فقد جاءت حاملة في طياتها ما ينفر عن اقترافها، ويؤذن بالتحذير منها، وينذر بالوعيد عليها، ويُمهد لتحقُّق العقاب الشديد المستتبع لها، والمتوقع ترتبًا عنها. لاسيما إذا ما أخذ في الاعتبار أن المدلولات التي نظمتها المفردة في عقد مطاويها، إنما تستحضر شناعتها فضلًا عن ذاتها في ظلال تسليطها على معمولها، وهو عنوان النفس، بمقتضى قوله ﷻ: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**.

المطلب الثالث: إيثار عنوان النفس، وأثره في النظم:

ذلك، ومن بليغ إحكام السبك، وبديع إعجاز النظم: أن أنيط المنهي عنه بالنفس، وسلط على عنوانها؛ تتميمًا للمعنى، وإيغالًا في إكمال الصورة المنفرة عن مقارفة النهي، وإمعانًا في تحقيق المنشود من المعالجة الربانية لما يسوء النفس البشرية؛ فقال تعالى: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**، والتعبير بها هنا له من البلاغة والمبالغة ما لا يخفى!

هذا: ويتجلى سرها، في ضوء الوقوف على مدلولها اللغوي، واستعمالها العربي، ودرسها التفسيري، وبنائها الصرفي، وسرها البلاغي. وهذا إجمالٌ مطويٌ تُعْنَى بنشره المسائل التالية:

المسألة الأولى: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال ابن فارس: " (نَفَسَ): (النُّونُ)، وَ(الْفَاءُ)، وَ(السِّينُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيْفَ كَانَ، مِنْ رِيحٍ، أَوْ غَيْرِهَا، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُهُ. مِنْهُ التَّنَفُّسُ: خُرُوجُ النَّسِيمِ مِنَ الْجَوْفِ. وَنَفَّسَ اللَّهُ ﷻ كُرْبَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ فِي خُرُوجِ النَّسِيمِ رَوْحًا، وَرَاحَةً. وَالنَّفَسُ: كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنْ مَكْرُوبٍ. وَالنَّفْسُ: الدَّمُ، وَهُوَ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّهُ أَنَّهُ إِذَا فُقِدَ الدَّمُ مِنْ بَدَنِ الْإِنْسَانِ؛ فَقَدَ نَفْسَهُ. وَيُقَالُ: لِلْمَاءِ نَفَسٌ، وَهَذَا

عَلَى تَسْمِيَتِهِ الشَّيْءَ بِاسْمِ غَيْرِهِ؛ وَلِأَنَّ قِوَامَ النَّفْسِ بِهِ. وَالنَّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ " [(١)]. **وقال أبو عبد الله الرازي:** " (النَّفْسُ): الرُّوحُ، والدَّمُ، والْجَسَدُ. وَيَقُولُونَ: ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ؛ فَيُذَكِّرُونَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهِ الْإِنْسَانَ. وَ(نَفْسُ) الشَّيْءِ: عَيْنُهُ، يُؤَكَّدُ بِهِ. وَ(تَنَفَّسَ) الصُّبْحُ: تَبَلَّجَ. وَشَيْءٌ (نَفِيسٌ)، أَيْ: يُتَنَافَسُ فِيهِ، وَيُرْغَبُ. وَهَذَا أَنْفَسُ مَالِي، أَيْ: أَحَبُّهُ، وَأَكْرَمُهُ عِنْدِي. وَنَفِسَ بِهِ، أَيْ: ضَنَّ. وَ(نَفُسَ) الشَّيْءُ، مِنْ بَابِ ظَرُفَ: صَارَ مَرْغُوبًا فِيهِ. وَ(نَافَسَ) فِي الشَّيْءِ، (مُنَافَسَةً)، وَ(نِفَاسًا) بِالْكَسْرِ؛ إِذَا رَغِبَ فِيهِ، عَلَى وَجْهِ الْمُبَارَاةِ فِي الْكَرَمِ. وَ(تَنَافَسُوا) فِيهِ، أَيْ: رَغِبُوا. وَيُقَالُ: (نَفَّسَ) اللَّهُ ﷻ عَنْهُ كُرْبَتَهُ، أَيْ: فَرَّجَهَا " [(٢)].

قلت: فانطوت تا [(٣)] المادة على المدلولات التالية: الهواء المتنفس، الروح، الدم، الماء، عين الشيء، وحقيقته، الجسد، الشيء النفيس، المرغوب، الأكرم، الأحب، الذي يستحق الإكرام، ومن ثَمَّ يفهم الضن به، والمنافسة فيه، وتحصيل الفرج له.. وغيرها.

المسألة الثانية: الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين:

هذا، وقد ظهرت المدلولات اللغوية للمفردة عند المفسرين، مبينين سبب الإطلاق، ومعللين وجه التسمية.

فقال الإمام الماوردي: " أما النفس: فمأخوذة من النفاسة، وهي الجلال؛ فنفس الإنسان أنفس ما فيه " [(٤)]. **وذكر الإمام الرازي:** أنها " ذات الشيء، وحقيقته، ولا تختص بالأجسام؛ لقوله ﷻ: **(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)** [المائدة: ١١٦] " [(٥)]. **وتعرض الإمام الحرالي [(٦)]** للدلالة اللغوية؛ فعرفها بأنها: " ما به ينفس المرء

(١) معجم مقاييس اللغة (نفس): ٥/ ٤٦٠ بتصرف يسير.

(٢) مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (نفس): صـ ٣١٦ بتصرف.

(٣) قلت: هذا اسم إشارة يشار به للأنثى. قال ابن مالك ناظمًا: (بذا لمفرد مذكّر أشر... بذي وذه تي تا على الأنثى اقتصر). ألفية ابن مالك: صـ ٢٧. وقد آثرتُ التعبير بها؛ لمعنًى في إيحاءات صوتها، وإشارةٍ في رسمها؛ اتساقًا مع المحدَّث عنه، والمشار إليه بها.

(٤) تفسير الماوردي: ١/ ١٥٤.

(٥) التفسير الكبير: ٢/ ٣٠٤.

(٦) هو " علي بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي، أبو الحسن: مفسر، من علماء (المغرب). قال عنه العلماء: ما

على غيره؛ استبدادا منه، واكتفاء بموجود نفاسته على مَنْ سواه " [١]. **وقال الإمام البيضاوي**: " المراد بالأنفس: ذواتهم، ويحتمل حملها على أرواحهم، وآرائهم " [٢].

وقال العلامة أبو السعود معلـلًا الإطلاق: " قد يقال للروح؛ لأن نفس الحيِّ به، وللقلب؛ لأنه محلُ الروح، أو مُتعلَّقُه، وللدم؛ لأن قِوامَها به، وللماء؛ لشدة حاجتها إليه " [٣].

وقال الإمام ابن عاشور: " الأنفس جمع نفس- بسكون الفاء- وهي مجموع ذات الإنسان من الهيكل والروح.. وباعتبار هذا التركيب الذي في الذات اتسع إطلاق النفس في كلام العرب تارة على جميع الذات كما في التوكيد، نحو: جاء فلان نفسه. وتارة على البعض.. وعلى الإحساس الباطني.. وتطلق على الروح الذي به الإدراك " [٤].

وقال- أيضًا-: " الأنفس: جمع نفس. والنفس يطلق على الذات كلها، ويطلق على باطن الإنسان " [٥]. " وهي الشخص والذات.. وتطلق على الروح الذي به الحياة والإدراك " [٦].

قلت: ظهرت المدلولات اللغوية للمفردة عندهم محصورة في المعاني التالية: ذات الشيء، وحقيقته، والأرواح التي بها الإدراك، والآراء، والنفاسة، والجلالة، والقلب، والدم، والماء، ومجموع ذات الإنسان، وشخصه، وبعضه، وإحساسه الباطني.. إلخ.

كما لاحظوا تعليل الإطلاق؛ فبيَّن الإمام الحرالي أنَّ النفس سميت بذلك؛ لمعنى النفاسة في المرء، **وأكد العلامة أبو السعود** أنَّ التعليل يرجع إلى أهمية ما يسمى بها، معربًا عن شدة الحاجة إليه، وتعينه.

من علم إلا له فيه تصنيف، أصله من (حرالة)، ولد ونشأ في (مراكش)، ورحل إلى (المشرق)، وتوفي في (حماة) بـ (سورية)، من كتبه: (مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل) في التفسير، و(الوافي) فرائض، و(تفهيم معاني الحروف).. وغيرها، وقال الذهبي: كان فلسفي التصوف، ملأ تفسيره بحقائقه، ونتائج فكره، (ت: ٦٣٨هـ) ". الأعلام: ٤/ ٢٥٦ وما بعدها بتصرف.

(١) نظم الدرر: ١/ ١٠٧.

(٢) أنوار التنزيل: ١/ ٤٥.

(٣) إرشاد العقل السليم: ١/ ٤١ بتصرف يسير.

(٤) التحرير والتنوير: ١/ ٤٧٦ بتصرف.

(٥) التحرير والتنوير: ٢١/ ٥١.

(٦) التحرير والتنوير: ٢٤/ ٢٤ بتصرف.

المسألة الثالثة: التوظيف اللغوي لمدلولات مادة المفردة، وأثرها التفسيري:

قلت: والذي يتأكد أن التوسع في المعنى بتوظيف جميع مدلولات المفردة، مراد بل متعين؛ إذ قد تناغمت بما انطوت عليه من معانٍ مع السياق، وتلاءمت مع مقتضى الحال؛ فكانت هي الأدخل تقريرًا لمبدأ الأخوة الإيمانية، والأكثر تناغمًا مع تصوير شناعة المنهي عنه، وإعلان قبح آثاره، والأبلغ في الرد عليهم، والأظهر في مواجهة أفعالهم، والأكثر اتساقًا للتحذير، والأبلغ في التنفير. **وهذا إجمالٌ يَتَسَنَّى تفصيله في النقاط التالية:**

النقطة الأولى: تناغمها مع تقرير مبدأ الأخوة الإيمانية:

أمعنت هذه المادة بما انطوت عليه من معانٍ في تأكيد هدفها، وتحقيق مرادها، وبلوغ مقصدها، وولوج مرماها، من تقرير مبدأ الأخوة الإيمانية، وبيان مدى اتحاد المؤمنين؛ حتى نزل اللامز لأخيه منزلة اللامز لنفسه، فتمثَّل حسن استجابتها لطابع مقامها، وبديع اتساقها لمقتضى حال سياقها، وبليغ تناغمها مع فرائد نظمها.

قال الإمام الطبري معللًا: " **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)** فجعل اللامز أخاه لامزًا نفسه؛ لأنَّ المؤمنين كرجلٍ واحدٍ فيما يلزم بعضهم لبعض، من: تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير " (١).

وقال الإمام الماتريدي مقدِّرًا: " قوله ﷻ: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**، أي: تذكروا مساوئ أنفسكم عند الناس. وفيه الأمر بالستر عليهم، وعلى أنفسهم، وألَّا يهتكوا سترهم، والله ﷻ أعلم " (٢).

وقال الإمام الماوردي موجِّهًا: " **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)** فيه وجهان: **أحدهما:** ولا تلمزوا أهل دينكم (٣). **الثاني:** لا تلمزوا بعضكم بعضًا " (٤). **وقال الإمام ابن عطية مؤكدًا هذا المعنى:** " قوله ﷻ: **(أَنفُسَكُمْ)**، معناه: بعضكم بعضًا؛ كأنَّ المؤمنين كنفسٍ واحدةٍ؛ إذ هم إخوة. فهم كما قال

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٢/ ٢٩٨ بتصرف.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٩/ ٣٣٤ بتصرف يسير.

(٣) قلت: في تخصيصه بذلك تحريضٌ على الامتثال، وتذكيرٌ بما عليه واقع الحال، من: بالغ قرهم، وتوفر حقوقهم، ووجوب احترامهم. ولا يفهم منه إباحة ذلك بالنسبة لغيرهم؛ فإنه مما تأباه تعاليم الدين الهادية، وتمجه شرائعه السامية، وتناهضه آدابه العالية.

(٤) النكت والعيون: ٥/ ٣٣٢.

ﷺ: «كالجسد إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى سائره بالسهر والحمى» [١]، وهم كما قال ﷺ– أيضًا–: «كالبنيان يشد بعضه بعضًا» [٢] " [٣].

وقال الزمخشري مقدرًا: " المعنى: وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها، والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممَّنْ لا يدين بدينكم، ولا يسير بسيرتكم [٤]. وقيل: معناه لا يعب بعضكم بعضًا؛ لأنّ المؤمنين كنفسٍ واحدةٍ، فمتى عاب المؤمنُ المؤمنَ؛ فكأنَّما عاب نفسه " [٥].

الإمامان: البيضاوي [٦]، **وأبو السعود** [٧].

وقال الإمام الرازي مفسرًا: " قوله تعالى: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**، أي: أنَّ عيب الأخ عائدٌ إلى الأخ، فإذا عاب عائبٌ نفسًا؛ فكأنَّما عاب نفسه " [٨]. **ومن ثَمَّ قال الإمام ابن عاشور:** " معنى: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**: لا يلمز بعضكم بعضًا؛ فنزل البعض الملموز، نفسًا للامزه؛ لتقرُّر معنى الأخوة " [٩].

قلت: فتظاهرت تلك النصوص– على كثرتها– في الدعوة إلى تحقق مبدأ الأخوة الإيمانية، وتقرير حقيقة الوحدة بين أبناء المسلمين؛ حتى ينزل الفرد منهم منزلة الآخر، في وجوب المحافظة عليه، واحترام آدميته، ورعاية حقوقه، وصيانة نفسه.. إلخ.

---

(١) **هذا جزء من حديث متفق عليه:** أخرجه الإمام البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، من حديث النعمان بن بشير ﷺ، برقم (٦٠١١). صحيح البخاري، لأبي عبد الله، مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري: ٨/ ١٠. والإمام مسلم: كتاب البر، والصلة، والآداب، باب تراحم المؤمنين، وتعاطفهم، وتعاضدهم، برقم (٢٥٨٦). صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٩.

(٢) **هذا جزء من حديث متفق عليه:** أخرجه الإمام البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، من حديث أبي موسى ﷺ، برقم (٤٨١). صحيح البخاري: ١/ ١٠٣. والإمام مسلم: كتاب البر، والصلة، والآداب، باب تراحم المؤمنين، وتعاطفهم، وتعاضدهم، برقم (٢٥٨٥). صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٩.

(٣) تفسير ابن عطية: ٥/ ١٥٠ بتصرف.

(٤) قلت: وفيه نظرٌ كما تقرر، غاية الأمر أنَّ المقام يتطلبها، والحال يستدعيها؛ اتساقًا لوجوب الامتثال، وحثًّا على الإذعان.

(٥) الكشاف: ٤/ ٣٦٩ بتصرف.

(٦) أنوار التنزيل: ٥/ ١٣٦ بتصرف.

(٧) إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٢١ بتصرف.

(٨) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٩ بتصرف.

(٩) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٨.

النقطة الثانية: اتساقها مع تصوير شناعة المنهي عنه، وإعلان قبح آثاره:

كما أسهمت هاتيك المادة في تبشيع النهي المذكور، وتصوير قبح آثاره، وتسجيل مدى شدة إيذائه المعنوي، ودمغه النفسي؛ فبينت أنه ينال من حقيقة الإنسان، وشخصه، وقوامه، ويطعن في ذاته، ويحطُّ من جوهر نفاسته، ويبلغ أثره إلى الروح، وينتقش في القلب، ويمتد ليثير ذرات الدم؛ ممَّا يبعث على الكراهية، وينشأ الأحقاد، ويحيط المجتمع بسحابة من ظلمات الضغينة، ويهطل عليه بوابل المكر، ويرسل إليه عواصف المكائد.

وفي هذه المناسبة قال الإمام الألوسي: " الملموز قد لا يقدر في الحال على عيب يلمز به لامزه؛ فيحتاج إلى تتبع أحواله؛ حتى يظفر ببعض عيوبه " (١).

قلت: وفيه ما يشغل المؤمن عن طبيعته الإيمانية، وأحواله القلبية، التي تأبى الولوج إلى ساحة المكروه، وتنفر من سلوك طريق المكائد؛ مما يسهم في ارتسام وبائها، ويصور اتساع دائرتها، ويسجل قبح آثارها؛ فيبلغ التحذير من النهي مبلغه، وتتحقق الدعوة إلى الامتثال مشفوعةً بدواعي الحثِّ على الإذعان، على آكد وجه وأبلغه.

النقطة الثالثة: مبالغتها في الردِّ عليهم، ومواجهة أفعالهم:

هذا، وقد أسهم التعبير بهاتِهِ المادة في الرد عليهم سالكًا مسلك الترغيب تارةً، والترهيب تارةً أخرى، وذلك من **حيثيات ثلاث:**

الأولى: أنَّها أكدت أنهم بالوقوع في اللمز قد ضلوا الطريق، وفقدوا الغاية، وحُرِمُوا نتيجة ما يطمحون إليه، من التحقق بمبدأ الأخوة الإيمانية. وفيه من الترغيب في الإقلاع عن التلبس بمعناها، ومنابذته ما لا يخفى، لاسيما بعد تقرير أن لمز الأخ أخاه بمثابة لمزه لنفسه.

الثانية: أنَّها قد عاملتهم بنقيض قصدهم: توبيخًا، وتحذيرًا، وإنذارًا؛ فأعلنت أنَّ ضرر ما فعلوه إنَّما يتعلق بذواتهم، ويعود إليهم، ويرد بالسوء عليهم، وهذا من قبيل المعاملة بنقيض القصد.

ومن هنا ذكر الزمخشري: " قيل: معناه: لا تفعلوا ما تلمزون به؛ لأنَّ مَنْ فعل ما استحق به اللمز؛ فقد لمز نفسه حقيقة " (٢). **وتبعه الأئمة:** البيضاوي، وأبو السعود، والألوسي (٣).

---

(١) روح المعاني: ١٣/ ٣٠٦.

(٢) الكشاف: ٤/ ٣٦٩ بتصرف.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل: ٥/ ١٣٦. إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٢١. روح المعاني: ١٣/ ٣٠٤ وما بعدها.

وقال الإمام الرازي موجِّهًا: " المعنى: أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيبٍ؛ يحاربه المعيب؛ فيعيبه؛ فيكون هو بعيبه حاملًا لغيره على عيبه، وكأنَّه هو العائب نفسه " [(١)]. **وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب مبرزًا حيثية التعبير بها:** " إنَّ الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء، لا يسوءُه كثيرًا أن يعيبه الناس، وأن يرجموه بكلِّ سوءٍ، وهذا- والله تعالى أعلم- هو ما قصد إليه قوله ﷻ: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)**: بإيقاع الفعل عليهم؛ فكأنَّهم إذ يلمزون غيرهم؛ يلمزون أنفسهم ضمنًا " [(٢)]. **وقال الشيخ الشعراوي متسائلًا ومجيبًا:** " هل أحدٌ منَّا يلمز نفسه؟ لا، ولكن الإنسان يلمز خصمه، ولمز الخصم يؤدي إلى لمز النفس؛ لأنَّ خصمه سيلمزه، ويعيبه، أو لأنَّكما سواء " [(٣)].

الثالثة: أنَّها قد سجلت بمطاويها متعلق مردود السوء، ونَوَّهَتْ بمكانته، مبالغةً في التحذير، وإمعانًا في التنفير؛ حيث قد بينت حقيقة متعلق الضرر، ومآل الإيذاء؛ فسجلت أنَّه إنَّما يرجع على ما به ينفس المرء على غيره، وما به قوامه—كالماء، والهواء، والدم-، فكيف ساغ لهم إيذاءُها، والنيل منها، مع ما تقرَّر لها من سامق المكانة، وتحقَّق لها من عظيم الأهمية، وتوفَّر لها من بليغ الكرامة؟!

ومن ثَمَّ فيتقرَّر أنَّه كان منوطًا بهم حماية أنفسهم، وصيانة أرواحهم، والمبالغة في إكرامها، والتنافس في المحافظة عليها، وتحصيل معاني الفرج بها، وعنها، ولها؛ إذ هي الأكرم لديهم، والأحب لهم، إلَّا أنَّ اللمز قد جَرَّ في أذياله ما هو على النقيض من ذلك تمامًا؛ ممَّا يؤكد بالغ النهي، ويقرِّر شديد التحذير، ويسهم في تحقيق التنفير؛ فيبلغ الردُّ عليهم مبلغه، وتتحقَّق مواجهة أفعالهم، ومحاربتها على آكد وجه، وأبلغه!

ومن البديع: أنَّه لَمَّا كان المقام يحمل في مطاويه النهي عمَّا يسوء النفس البشرية؛ فيُعْنَى بالجانب النفسي، وينهى عن الإيذاء المعنوي، بتشريع النواهي: تأديبًا، وإرشادًا- لَمَّا كان الأمر كذلك؛ كان التعبير بالنفس هنا [(٤)] لا يسع أيُّ تعبيرٍ آخر القيام بدوره، ولا يَتَأَتَّى بحالٍ الاستغناء عنه؛ فهو من متطلبات المقام، ومستدعيات الحال.

والخلاصة:

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٩ بتصرف.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٣/ ٤٤٩ بتصرف يسير.

(٣) تفسير الشعراوي: ٤/ ٢٠١١.

(٤) قلت: لأنَّها أمرٌ معنويٌّ؛ فناسب مراعاة هذا الجانب؛ اتساقًا للمنهي عنه، والذي ينال من نفسية المرء معنويًا.

قلت: قد تبيَّن ممَّا سبق: أنَّ التعرض لعنوان (النفس)، وإيثاره في النظم، هو الأدخل في تقرير مبدأ الأخوة الإيمانية، والأظهر في ارتسام شناعة المنهي، والأشد في الذم، والأوقع في الزجر، والأظهر في الإنذار والتحذير، والأبلغ في التهديد والوعيد؛ ومن ثَمَّ فيبلغ تمكُّن المفردة في نظمها غاية الغايات النائية، وتصل في استجابتها لمقامها، واتساقها مع فرائد عقدها نهاية النهايات القاصية! **هذا من ناحية دلالة اللفظ.**

المطلب الرابع: الدلالة الصرفية للمفرد القرآنية:

أمَّا من ناحية البناء: فقد جاءت البنية الصرفية أعمق أثرًا، وأصدق دلالةً؛ إذ آثر التعبير بجمع القلة (أَفْعُل)، مع الإضافة لضميرهم.

وفي تلك المناسبة قال ابن مالك ناظمًا لأوزان جموع القلة: (أفْعِلَةٌ أَفْعُلٌ ثمّ فُعْلَهْ.. ثُمَّتَ أفعالٌ جُمُوعُ قِلَّةْ) [(١)].

وقال شارحًا: "لجمع القلة من أبنية التكسير أربعة، وهي: (أَفْعُل)، كأَفْلُس، و(أَفْعَال)، كأَثْواب، و(أَفْعِلَة)، كأَرْغِفَة، و(فُعْلَة) كغُلْمَة. ويشارك هذه الأبنية في الدلالة على القلة: **جمعا التصحيح**؛ ما لم تقترن بهما (الألف)، و(اللام)، الدالة على الاستغراق، أو يضافا إلى ما يدلُّ على الكثرة " [(٢)].

الأثر التفسيري لإيثار التعبير بجمع القلة، والإضافة:

أمَّا التعبير بجمع القلة، والإضافة: فله وقعه، ودلالته؛ حيث إنَّه هو الأنسب للمقام، والأكثر تناغمًا مع مقتضى الحال؛ إذ في ظله يتقرَّر مبدأ الأخوة الإيمانية، وفي ضوئه يتأكَّد مدى القربة، والاتحاد، ونبذ الفرقة، والابتعاد، والذي يتصوَّر في ضوء القلة المستفادة من الجمع لفظًا؛ لكونها ترتسم بقلة العدد عقلًا قلة الحيز الزمكاني وقوعًا، معلنة ضمنًا ضرورة التواصل، وشدة التواؤم، كما يُنَوِّهُ هذا الجمع بأنَّ منزلة الأخ بمنزلة النفس بما لا غاية وراءه!

---

(١) ألفية ابن مالك: صـ ١٧٨.

(٢) شرح الكافية الشافية، لمحمد بن عبد الله، بن مالك الطائي الجياني: ٤/ ١٨١٠ بتصرف يسير. **وقال سيبويه:** " ما كان على ثلاثة أحرف، وكان فعلًا؛ فإنه إذا كُسِّر على ما يكون لأدنى العدد؛ كُسِّر على (أفعال)، ويجاوزون به بناء أدنى العدد؛ فيكسر على: (فعولِ)، و(فعالِ)، والفعول فيه أكثر. فمن ذلك قولهم: عدلٌ، وأعدالٌ، وعدولٌ. وجذعٌ، وأجذاعٌ، وجذوعٌ ". الكتاب، لسيبويه: ٣/ ٥٧٤ وما بعدها بتصرف يسير.

المطلب الخامس: الدلالة البلاغية للكلمة القرآنية:

قلت: والتعبير بالأنفس هنا– أيضًا– له أثره، وبلاغته؛ حيث سلك مسلك الاستعارة [١] في التأكيد على معنى الأخوة، التي تأبى صدور التعييب المذكور [٢].

ومن ثَمَّ قال الإمام البيضاوي مقدرًا، ومعللًا: " أي: ولا يعب بعضكم بعضًا؛ فإنَّ المؤمنين كنفسٍ واحدةٍ " [٣].

وقال الإمام القونوي معلقًا: " قوله: (بعضكم بعضا): إشارة إلى أن: **(أَنفُسَكُمْ)** استعارةٌ لهذا المعنى، كما نَبَّهَ عليه بقوله: (فإنَّ المؤمنين.. إلخ)، وفي هذه الاستعارة مبالغة في الزجر؛ حيث نَبَّهَ على أنَّ التعييب المذكور كتعييب أنفسكم، فهل يتجاسر أحدٌ على تعييب أنفسهم! فكذا هنا، ولو لم يقصد المبالغة؛ لكان السوق هكذا: (ولا يلمز بعضكم بعضًا)؛ جعل لمز غيره كلمز نفسه؛ لاتصاله دينًا، وقد ينضمُّ إليه اتصاله نسبًا؛ فشبه ذلك الغير بالأنفس؛ فذكر اسم المشبه به، وأريد المشبه " [٤].

هذا، وقد كان للاستعارة هنا بعدها البلاغي السامق مقامًا، ووقعها التفسيري الرائق نظمًا؛ إذ إنَّها الأبلغ في إثبات المعنى، وتقريبه، والأظهر في إيضاحه، وتأكيده. **وفي هذا الشأن قال الإمام عبد القاهر مقررًا أثر الاستعارة:** " ليستِ المزيةُ التي تَراها لقولك: رأيتُ أسدًا، على قولك: رأيتُ رجلًا لا يتميزُ عن الأَسد، في شجاعته، وجُرأته– أنَّك قد أَفدْتَ بالأول زيادةً في مساواته الأسد؛ بل إنَّك أَفَدْتَ تأكيدًا، وتشديدًا، وقوةً في إثباتك له هذه المساواةَ، وفي تقريرِكَ لها. فليس تأثيرُ الاستعارةِ إذن

---

(١) قال الإمام عبد القاهر: " الاستعارة: أن تُريدَ تشبيهَ الشيءِ بالشيءِ؛ فَتَدعَ أنْ تُفْصحَ بالتشبيهِ، وتُظْهرَه، وتجيءَ إلى اسمِ المشبَّه بهِ، فتعُيرَه المشبَّهَ، وتُجْرِيَه عليه. تُريدُ أن تَقول: رأيتُ رجلًا هو كالأسدِ، في شجاعتهِ، وقوةِ بطشِه سَواء، فتَدَعُ ذلك، وتقولُ: رأيتُ أسدًا ". دلائل الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني: صـ ٦٧. وقيل: " اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي ". كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين مسعود التفتازاني الهروي، وبهامشه: حاشية المير سيد شريف: صـ ٣٥٤.

(٢) قلت: إجراؤها كما يلي: شبه غير اللامز (وهو الملموز) بنفسه (أي: بنفس اللامز)؛ بجامع وجوب المحافظة في كلٍّ، ثُمَّ تنوسي التشبيه، وادعي: أنَّ المشبه فردٌ من أفراد المشبه به، وداخلٌ في جنسه، ثُمَّ حذف المشبه (وهو غير اللامز)، واستعمل اسم المشبه به (وهو النفس) في المشبه، على سبيل الاستعارة التصريحية (لكون المشبه به مذكورًا)، الأصلية (لكونها في الأسماء، لا في الأفعال، ولا في الحروف).

(٣) أنوار التنزيل: ٥/ ١٣٦.

(٤) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ١٨/ ١٣٥ بتصرف يسير.

في ذاتِ المعنى، وحَقيقَتِه، بل في إيجابهِ، والحُكْم به " [١].

ومن ثَمَّ قال السكاكي مصرحًا ببلاغتها، ومعللًا حيثيتها: " إنَّ الاستعارة أبلغ من الحقيقة " [٢]. وذلك لأنَّك "تدخل صورة المشبه في جنس صورة المشبه به؛ رومًا للمبالغة في التشبيه؛ فتكسوها وصف المشبه به، من غير تغييرٍ فيه، بوجهٍ من الوجوه على سبيل الاستعارة " [٣]. **وقيل:** " ملاك الاستعارة: تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وإنَّما تحسن بأن تجيء على وجهٍ من المناسبة، وطرفٍ من الشبه، والمقاربة " [٤].

قلت: وممَّا سبق يتأكَّد أنَّه قد بلغ تمكُّن المفردة– لغةً، وبناءً، وبلاغةً– مبلغًا لا يبارى، وتحقق إعجاز نظمها على وجهٍ لا يجارى.

المطلب السادس: لطيفة تذييلية في استخلاص الفرق بين السخرية واللمز:

تقرَّر ممَّا سبق: أنَّ السخرية واللمز، قد انطوى كلٌّ منهما على ما يكشف عن حقيقتهما، ويميط اللثام عن صورهما، ويعرب عن سوء آثارهما، ويبالغ في التحذير من الوقوع فيهما، ويندد [٥] بالمقارفين لهما، ويسجل بالغ الوعيد عليهما.

هذا، وبعقد المقارنة بين المفردتين: (السخرية، واللمز)؛ يتضح أنَّهما قد اتفقتا في بعض المدلولات، إلَّا أنَّه قد انفردت كلٌّ واحدةٍ منهما بما يجعلها مستقلةً في دلالتها، ومتعينةً في نظمها، ومتسقةً مع عناصر سياقها: سباقًا، ولحاقًا.

كما يتجلى **أن** معنى السخرية أوسع نطاقًا، وأشمل دلالةً؛ فتضمنت معنى اللمز، وزيادة، **وأن** العطف من باب عطف الخاص على العام؛ للمبالغة، كأنَّه جنسٌ آخر، وذلك لعلةٍ تستوجبه.

قلت: وهي ذيوع فعل اللمز؛ ممَّا يجعله في مقام الاستهانة به، وعدم التحرز منه؛ فأفرده الحق ﷻ؛ لبيان أنَّه أحد أنماط السخرية المنهي عنها، استيعابًا لكلِّ ما يؤذي النفس البشرية، ويعكر صفو

(١) دلائل الإعجاز: صـ ٧١ بتصرف.

(٢) مفتاح العلوم، ليوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبي يعقوب: صـ ٢٨٦ بتصرف يسير.

(٣) مفتاح العلوم: صـ ٣٧٦.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبي المعالي، جلال الدين القزويني: ٣/ ٢٣١ بتصرف يسير.

(٥) قال الخليل: " التنديد هو رفعك الصَّوت بما يكره صاحبك ". العين (شيد): ٦/ ٢٧٨ بتصرف يسير.

الأخوة الإيمانية.

وفي تلك المناسبة قال الإمام ابن عاشور ملمحًا: " جاءت هذه الآيات منبهةً على أمورٍ من حسن المعاملة، قد تقع الغفلة عن مراعاتها؛ لكثرة تفشيها في الجاهلية؛ لهذه المناسبة " [(١)].

هذا، ومن الفروق المقررة بينهما: أنَّ السخرية تتضمن العيب، ولا يصرح فيها، أما اللمز فهو التصريح بالعيب على نحو ما تقدَّم سلفًا [(٢)].

كما أنَّه إذا ما قورن بين فعلي: السخرية، واللمز؛ يتضح أنَّ أثر اللمز أوسع؛ لأنَّ السخرية تقع من جانبٍ واحدٍ، أمَّا اللمز فمن طرفين كما تقرَّر.

ولا يقف الأمر عن هذا الحدِّ؛ بل يحمل النظم في طياته الكثير من الإشارات المعبرة، والفيوضات الموحية؛ حيث صوَّر معنى السخرية أنَّها تكون بين طرفين، يبدو ظاهريًا أنَّ أحدهما قويٌ، والآخر ضعيفٌ؛ ممَّا يحسن معه تحقُّق معاني: الاحتقار، والازدراء، والقهر، والاستذلال، والسوق، والانقياد.. إلخ ممَّا يحمله التعبير القرآني في طياته في ضوء خصائص لسانه، بموجب عربي بيانه. **أمَّا اللمز:** فيشير إلى أنَّ أطرافه متساوية، ويقع الفعل منهما مشاركةً، وتقابلًا.

ومن البديع: أنَّ النظم يدعم هذا المعنى بجميع فرائده، وكلِّ جزيئاته؛ ومن ثَمَّ فآثر في الأول **التعبير بـ (قَـوْمٌ)**؛ ليتناسب مع معاني السخرية، وتتجلى من ظلاله معنى: التفوق، والعزم، والانتصاب، والاستعلاء.. وغير ذلك [(٣)]. وفي الثاني **التعبير بـ (أَنفُسَـكُمْ)**؛ ليتناسب– فضلًا عمَّا سبق من حيثيات– مع التقابل في الفعل، والمباراة في الردِّ.

قلت: فأسهم ذلك العطف– عطف اللمز على السخرية– في الحفاظ على النفس البشرية بكلِّ الأوجه، وجميع الاحتمالات، وأغلق كلَّ الأبواب المؤدية لإيذائها؛ تقريرًا لمعنى الأخوة الإيمانية المنشودة، ودعمًا لتحقُّقها؛ ومن ثَمَّ فيتقرَّر أنَّ النظم واردٌ على سبيل الترقي، وأنَّ العطف من قبيل عطف الخاص على العام كما تبيَّن.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٦.

(٢) ينظر نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٦.

(٣) قلت: هذا مع انفكاك الجهة في إسناد تلك الأوصاف للطرفين؛ حيث إنَّ أحدهما يبدو كذلك في الظاهر، أمَّا الآخر فقد يكون أفضل حالًا في الباطن، أو يكون الأول بالنسبة للحال، أمَّا الآخر فبالنسبة لما سيؤول إليه أمره كما تقرَّر في موضعه مفصَّلًا.

ومن الفروق بين المفردتين –أيضا–: أنَّ مبعث السخرية واقعٌ؛ لأنَّها تكون لسببٍ متحققٍ معلومٍ غالبًا، مثل: وجود رزيةٍ في المسخور منه، أو نقيصةٍ.. إلخ، كما أسهم في ذلك تعدية الفعل بـ **(مِّن)** على نحو تقدَّم بيانه. أمَّا سبب اللمز فمتوقعٌ؛ إذ إنَّه يحتاج إلى تتبع الملموز؛ للظفر بما يلمزه به، ويردُّ عيبه عليه.

وفي هذا الصدد قال ابن عطية: " قوله ﷺ: **(يَسْخَرْ)**، معناه: يستهزئ. والهزء إنما يترتب؛ متى ضعف امرؤ: إما لصغر، وإما لعلة حادثة، أو لرزية، أو لنقيصة يأتيها، فنهي المؤمنون عن الاستهزاء في هذه الأمور، وغيرها " (١).

وقال الإمام الألوسي: " الملموز قد لا يقدر في الحال على عيب يلمز به لامزه؛ فيحتاج إلى تتبع أحواله؛ حتى يظفر ببعض عيوبه " (٢).

ومن الفروق بينهما: أنَّ السخرية تكون بمحضرٍ من الناس، ولا كذلك اللمز.

وفي هذا الشأن قال الإمام البقاعي: " لَمَّا كانت السخرية تكون بحضرة ناسٍ، قال معبرًا بما يفهم أن مَنْ شارك، أو رضي، أو سكت وهو قادرٌ؛ فهو ساخرٌ مشاركٌ للقائل: **(قَوْمٌ)**، أي: ناسٌ فيهم قوة المحاولة " (٣).

قلت: فكان عقد المنهيات سالكًا مبدأ الترقي، مستوعبًا الحالتين: الواقعة، والمتوقعة، المتضمنة للعيب، والمصرحة به؛ تتميمًا للمعنى، وتكميلًا للمراد، مع إضفائه على النظم بسيل من المعاني، وتوافده على مقامه بجميل الإشارات، وأبدع الإيحاءات، وهذا من أسرار العطف المنشودة، وأحد أوجه إعجازه المقررة.

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ١٤٩ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الألوسي: ١٣/ ٣٠٦.
(٣) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٥ بتصرف يسير.

المبحث الثالث

النهي عن التنابز بالألقاب

بعد أن نهى الحق ﷻ عن السخرية، واللمز؛ أتبع ذلك بالنهي عن صورةٍ أخرى من مظاهر ترك الأدب في التعامل مع الآخرين، ممثلةً في التنابز بالألقاب؛ فقال ﷻ متمِّمًا سلك المنهيات عطفًا على ما سبق: **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ)**. **وفيه مطالب بيانها على النحو التالي:**

المطلب الأول: مناسبته لما قبله:

تمَّمَ هذا النهي عناصر عقده، فكان له في سلكه بليغ وقعٍ، وحظي بين عناصر سبكه بعظيم بيان، فهو تأديبٌ آخر نسج في سلك ما قبله؛ استكمالًا لأسباب الإيذاء المعنوي، ومنعًا من اقترافها، وحفاظًا على نفسية البشر من كلِّ ما يسوءُها. **ومن ثَمَّ قال الإمام النيسابوري مبينًا وجه النظم:** " قوله ﷻ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**: تأديبٌ آخر " [(١)].

قلت: ولَمَّا كان اللقب يستعمل فيما يشعر برفعة مسماه، أو ضعته؛ قرن بما يسهم في الكشف عن المعنى، ويجلِّي المراد؛ إذ إنَّ مادة (ن ب ز) تستعمل فيما يكره من الألقاب، ويسوء النفس البشرية؛ فكان التعبير بها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، على ما سيتبين من تحليل المفردة.

وفي هذا الشأن قال الإمام الماتريدي: " لو قال ﷻ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**؛ لكان كافيًا، لكن كأنَّه قال: ولا تظهروا ألقابهم؛ فيسوءهم ما أظهرتم من اللقب " [(٢)]. **وقال الإمام الكرماني:** " النبز: القذف، والنبز– بالفتح–: الاسم، ولا يستعمل إلَّا في القبيح. واللقب يستعمل في الحسن والقبيح " [(٣)]. **وقال الإمام النيسابوري:** " النبز بالسكون: القذف بالمكروه من الألقاب، واللقب من الأعلام: ما دلَّ على مدحٍ أو ذمٍّ، والنبز بالفتح: اللقب القبيح؛ فهو أخصُّ من اللقب " [(٤)]. **وقال الخطيب**

(١) تفسير النيسابوري= غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: ٦/ ١٦٥.

(٢) تفسير الماتريدي: ٩/ ٣٣٤ بتصرف يسير.

(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبي القاسم برهان الدين الكرماني: ٢/ ١١٢٣.

(٤) تفسير النيسابوري: ٦/ ١٦٥.

الشربيني: " إنَّ النبز يختص بلقب السوء " [١].

المطلب الثاني: سبب النزول:

جاء في سبب نزول هذا النهي ما أخرجه ابن ماجة «عَنْ أَبِي جبيرة بن الضحاك، قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ)** [الحجرات: ١١]، قَدِمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ وَالرَّجُلُ مِنَّا لَهُ الِاسْمَانِ وَالثَّلَاثَةُ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ رُبَّمَا دَعَاهُمْ بِبَعْضِ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ؛ فَيُقَالُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا؛ **فَنَزَلَتْ: (وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ)**» " [٢].

المطلب الثالث: حقيقة التنابز بالألقاب:

هذا، ويتضح سرُّ إيثار هاتيك المفردة، ويتأكَّد وجه إعجازها، من خلال الوقوف على دلالتها اللغوية، واستعمالاتها العربية، ووجوهها التفسيرية، وبنيتها الصرفية. وهذا ما يناط تفصيله بالمسائل التالية:

المسألة الأولى: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال الخليل: " نبز: النبز: مصدر النَّبَز، وهو اسم كاللّقب، والتَّنْبيز: التّسمية " [٣]. **وقال الإمام الأزهري**: " النَّبَزُ: اللَّقب. النِّبْز: قشورُ الجُدام وَهُوَ السَّعَف " [٤]. **وتبعهم ابن فارس** [٥]. **وقال الإمام الراغب**: " النَّبْزُ: التَّلْقِيب " [٦].

وقيل: "(ن ب ز): نَبَزَهُ نَبْزًا مِنْ بَابِ ضَرَبَ: لَقَّبَهُ. وَالنَّبْزُ: اللَّقَبُ تَسْمِيَةٌ بِالْمَصْدَرِ. وَتَنَابَزُوا: نَبَزَ

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الخطيب الشربيني: ٤/ ٦٨.

(٢) حسن صحيح: أخرجه ابن ماجة: أبواب الأدب، باب الألقاب، برقم (٣٧٤١): سنن ابن ماجه: ٤/ ٦٧٨. والترمذي بلفظ مقارب: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ الحُجُرَاتِ، برقم (٣٢٦٨)، وقال: " حديث حسن صحيح ". وصححه الألباني. سنن الترمذي: ٥ / ٣٨٨. وذكره الواحدي في أسباب النزول: صـ ٣٩٣ وما بعدها.

(٣) العين (نبز): ٧/ ٣٧٥.

(٤) تهذيب اللغة (نبز) ١٣/ ١٥٦.

(٥) مجمل اللغة (نبز): صـ ٨٥٢.

(٦) المفردات (نبز): صـ ٧٨٨.

بَعْضُهُمْ بَعْضًا " [١].

وقال ابن منظور: " قوله ﷺ: **(تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ)**، أَي: لَقَّبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والتَّنابُزُ: التَّدَاعِي بالأَلقاب، وَهُوَ يَكْثُرُ فِيمَا كَانَ ذَمًّا " [٢]. **وقال الإمام العسكري:** " اللقب ما غلب على المسمى من اسمٍ ثالثٍ. وأمَّا النبز فإنَّ المبرد قال: هو اللقب الثابت، قال: والمنابزة: الإشاعة باللقب؛ يقال: لبني فلان نبزٌ يعرفون به؛ إذا كان لهم لقبٌ ذائعٌ شائعٌ، ومنه قوله ﷺ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ)**، وكان هذا من أمر الجاهلية؛ فنهى الله ﷻ عنه. وقيل: النبز: ذكر اللقب، وقالوا في تفسير الآية: هو أن يقول للمسلم: يا يهودي، أو يا نصراني؛ فينسبه إلى ما تاب منه " [٣].

قلت: تجلَّى من صنيع اللغويين أنَّ مادة (ن ب ز) يدور فلكها حول المعاني التالية: التلقيب، التسمية، السعف، التداعي بالألقاب، اللقب الثابت، وذكره، وإشاعته، والإذاعة به، كما تأكَّد أنَّه يكثُر فيما كان ذمًّا وعيبًا.. إلخ.

المسألة الثانية: حقيقة التنابز عند السادة المفسرين:

قلت: ظهرت الدلالة اللغوية للمفردة عند السادة المفسرين مكسوةً بثوبٍ من أنماط الإطناب، وموشحةً بالتوسع في المعنى، ومدمجةً ببيان المراد منها، ومبرزةً وشيج علاقتها بسبب النزول.

ومن ثُمَّة قال الفراء: " قوله ﷺ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ)**: كَانَ الرجل يَقُولُ للرجل من اليهود وَقَدْ أسلم: يا يهودي؛ فنُهوا عنْ ذَلِكَ " [٤]. **وقال الزجاج:** " **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ)**، النبز واللقب في معنًى وَاحِدٍ، أي: لا يقول المسلم لِمَنْ كان يَهوديًا أو نصرانيًا، فأسلم: لقبًا يعيِّره فيه بأنَّه كان نصرانيًا أو يهوديًا. ويحتمل أن يكون في كلِّ لقبٍ يكرهه الإنسان؛ لأنَّه إنَّما يجب أن يخاطب المؤمن أخاه بأحب الأسماء إليه " [٥].

وقال الإمام الطبري مقدِّرًا: " لا تداعوا بالألقاب، والنبز واللقب بمعنًى واحدٍ. واختلف أهل التأويل في الألقاب التي نهى الله ﷻ عن التنابز بها في هذه الآية؛ **فقال بعضهم:** يريد بها: الألقاب التي يكره

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن مُحَمَّد بن علي الفيومي ثم الحموي (نبز): ٢/ ٥٩٠.
(٢) لسان العرب (نبز): ٥/ ٤١٣ بتصرف يسير.
(٣) معجم الفروق اللغوية: صـ ٥٢ بتصرف.
(٤) معاني القرآن: ٣/ ٧٢ بتصرف يسير.
(٥) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٣٦ بتصرف.

النبز بها الملقَّب، وقالوا: إنَّما نزلت هذه الآية في قومٍ كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلمَّا أسلموا؛ نهوا أن يدعو بعضهم بعضًا بما يكره من أسمائه التي كان يدعى بها في الجاهلية. **وقال آخرون:** بل ذلك قول الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق، يا زان. **وقال آخرون:** بل ذلك تسمية الرجلِ الرجلَ بالكفر بعد الإسلام، والفسوق، والأعمال القبيحة بعد التوبة. ثم **قال جامعًا بين الأقوال:** والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب: أن يقال: إنَّ الله ﷻ نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب، وهو: دعاء المرء صاحبه بما يكرهه، من: اسمٍ، أو صفةٍ، وعمَّ الله ﷻ بنهية ذلك، ولم يخصِّصْ به بعض الألقاب دون بعضٍ؛ فغير جائزٍ لأحدٍ من المسلمين أن ينبز أخاه باسمٍ يكرهه، أو صفةٍ يكرهها. وإذا كان ذلك كذلك؛ صَحَّتِ الأقوال التي قالها أهل التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعض ذلك أولى بالصواب من بعضٍ؛ لأنَّ كلَّ ذلك ممَّا نهى الله ﷺ المسلمين أن ينبز بعضهم بعضًا " [(١)]. **وتبعه كلٌّ من الأئمة: الماتريدي** [(٢)]، **والماوردي** [(٣)]، **وابن عطية** [(٤)]، **والشهاب** [(٥)]. **وقال الزمخشري:** " التنابز بالألقاب: التداعي بها: تفاعل من نبزه، وبنو فلان يتنابزون، ويتنازبون. ويقال: النبز، والنزب: لقب السوء، والتلقيب المنهي عنه، وهو ما يتداخل المدعوّ به كراهة؛ لكونه تقصيرًا به، وذمًّا له، وشينًا " [(٦)]. **وقال الإمام الرازي:** " أمَّا النبز: فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه " [(٧)].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢/ ٢٩٩ – ٣٠٢ بتصرف.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٩/ ٣٣٤ وما بعدها بتصرف.

(٣) مفصلًا: " ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ في النبز وجهان: **أحدهما:** أنَّه اللقب الثابت. **الثاني:** أنَّ النبز: القول القبيح، وفيه هنا أربعة أوجه: **أحدها:** أنَّه وضع اللقب المكروه على الرجل، ودعاؤه به. **الثاني:** أنَّه تسمية الرجل بالأعمال السيئة بعد الإسلام: يا فاسق، يا سارق، يا زاني. **الثالث:** أنَّه يعيره بعد الإسلام بما سلف من شركه. **الرابع:** أن يسميه بعد الإسلام باسم دينه قبل الإسلام، لِمَنْ أسلم من اليهود: يا يهودي، ومن النصارى: يا نصراني". النكت والعيون: ٥/ ٣٣٢ وما بعدها بتصرف.

(٤) قائلًا: " أي: لا يقل أحدٌ لأحد: يا يهودي بعد إسلامه، ولا يا فاسق بعد توبته، ونحو هذا ". المحرر الوجيز: ٥/ ١٥٠.

(٥) حيث قال: " ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾: لا ينسب أحدكم غيره إلى كفرٍ أو فسقٍ كان فيه، بعد اتصافه بضده ". حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي= عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن محمد الحنفي: ٨/ ٧٩.

(٦) الكشاف: ٤/ ٣٦٩.

(٧) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٨ بتصرف يسير.

وقال السمين الحلبي: " قوله ﷺ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**، التنابُزُ: تفاعُلٌ من النَّبْزِ، وهو التداعِي بالنَّبْزِ. والنَّزْبُ، وهو مقلوبٌ منه؛ لقلةِ هذا، وكثرةِ ذاك. ويُقال: **(تَنَابَزُواْ)**، وتنازَبُوا؛ إذا دعا بعضُهم بعضًا بلقَبِ سُوْءٍ. وأصلُه: من الرَّفْعِ؛ كأنَّ النَّبْزَ يَرْفَعُ صاحبَه؛ فيشاهَدُ [(١)]، واللَّقَبُ: ما أَشْعَرَ بضَعَة المُسَمَّى كقُفَّة وبَطَّة، أو رِفْعَتِه كالصِّدِّيق، وعتيق، والفاروق، وأسدِ الله " [(٢)]. **وقال الإمام البقاعي مقدرًا**: " **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**، أي: ينبز بعضكم بعضًا، أي: يدعو على وجه التعيُّر والتسفُّل **(بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ)**: بأن يدعو المرء صاحبه بلقبٍ يسوءُهُ، سواء كان هو المخترع له، أو لا، وأمَّا ألقاب المدح فنعم هي، كالصِّدِّيق، والفاروق ﷺ " [(٣)].

وقال الخطيب الشربيني مقدِّرًا، ومعلِّلًا: " **(وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ)**، أي: ولا يدع بعضكم بعضًا بلقب السوء؛ فإنَّ النبز يختصُّ بلقب السوء " [(٤)]. **وتبعه العلامة أبو السعود، وأ.د/ وهبة الزحيلي** [(٥)].

وقال الإمام المراغي: " التنابز: التعاير والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب " [(٦)].

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب: " التنابز بالألقاب: الترامي بها " [(٧)].

قلت: تَمَهَّدَ من سوق تلك النصوص على كثرتها: أنَّ الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين قد تجلَّت أوسع نطاقًا، وأثمر تناولًا، وأكثر تطورًا، وجاءت عباراتهم موحيةً بأثر هذا الفعل، وتصوير بشاعته [(٨)]؛ فشملت المعاني التالية: قول ما يسوء، التلقيب، المعايرة بما يكره، التداعي بالألقاب، والترامي بها، اللقب الثابت، اللفظ القبيح، وضع اللقب المكروه على الرجل، دعاء المرء صاحبه بما يكرهه، التسمية

---

(١) قلت: قد تضمن هذا الأصل الإشارة إلى الأثر النفسي الذي يخلفه؛ إذ حمل في طياته معنى الفضح، وكشف الستر، وإزالة الحرمة، والحطِّ من الشأن، ووضع الكرامة.

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي: ١٠/ ١٠.

(٣) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٦ وما بعدها بتصرف يسير.

(٤) السراج المنير: ٤/ ٦٨.

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود: ٨/ ١٢١. التفسير المنير: ٢٦/ ٢٤٧.

(٦) تفسير المراغي: ٢٦/ ١٣٢.

(٧) التفسير القرآني للقرآن: ١٣/ ٤٤٩.

(٨) قلت: لاسيما معاني: التداعي بالألقاب تسفُّلًا، والترامي بها، والقذف بالمكروه، والقبيح... وغيرها.

بالأعمال السيئة بعد الإسلام، المعايرة بما سلف من الشرك، مجرد التسمية بشيءٍ وإن لم يكن فيه، التداعي على وجه التعيُّر والتسفُّل بما يسوء، القذف بالمكروه من الألقاب، اللقب القبيح، النسبة إلى الكفر أو الفسق بعد الاتصاف بضدهما. كما ألقوا الضوء على أصله، الذي هو من الرفع، مبينين حيثية ذلك؛ كأنَّ النَّبْز يرفع صاحبه؛ فيشاهد، وفيه من تحقيق معنى الفضح، وكشف الستر ما لا يخفى!

المسألة الثالثة: التوسع في المعنى، بتوظيف الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، وتفعيل الأوجه التفسيرية:

قلت: وممَّا سبق يتأكَّد أنَّ المفردة القرآنية قد جاءت متمكنةً في نظمها، متعينةً في مقامها، معجزةً بيانيةً بين عناصر سبكها؛ فجاءت بوظيفةٍ تكمن فيما تحمله بمطاويها من المعاني، وما ترتسمه مكنوناتها من الدلالات، وما يكتنفها من الاستعمالات، وما ينتظمها من الإيحاءات المعبرة، وتفيض به من الإشارات المثمرة.. إلخ. **وهذا الإجمال تُعْنَى بنشره النقاط التالية:**

النقطة الأولى: الكشف عن حقيقة المفردة، وارتسام صورها:

حملت البنية القرآنية في مطاويها من المعاني والدلالات ما يكشف عن حقيقتها، ويبين المراد منها، ويستوعب صورها، ويرتسم أنماطها، بلا أدنى تخبُّطٍ في فهمها، أو تطرُّقِ وَهْمٍ في مقصدها.

يتقرَّر ذلك في ضوء **مدلولات:** القول القبيح، اللفظ بما يسوء، التداعي بالألقاب، والترامي بها، وضع اللقب المكروه على الرجل، دعاء المرء صاحبه بما يكرهه، اللقب الثابت، واختراعه، والإشاعة به، وإذاعته. **ومن صور ذلك:** التسمية بالأعمال السيئة بعد الإسلام، والمعايرة بما سلف من الشرك والمعاصي، **و**النسبة إلى الكفر أو الفسق بعد الاتصاف بضدهما. **حاملة في طياتها** ما يستوعب أنماط الاتصاف بها، لاسيما **مدلول:** مجرد التسمية بشيءٍ وإن لم يكن فيه، القذف بالمكروه من الألقاب، والمعايرة باللقب القبيح.

ومن ثَمَّت فجيء بها؛ لكونها ارتبطت بمعنى الذم، وكثُر استعمالها فيما تكرهه النفوس، وتأباه العقول، وتمجُّه الطباع، ويكون بقصد الإيذاء المعنوي، والنيل النفسي، محددةً هدفها، قاصدةً مرماها، مخرجةً ما عداها ممَّا لم يكن بقصدها، ولا يترتب عليه أثرها، وغير ذلك مما ليس خاضعًا للنظم، ولا مستجيبًا لمقتضى الحال، أو متناغمًا مع مستدعيات المقام.

ولذا قال الإمام الماتريدي معلنًا أثرها: " نهوا عن أن يسموهم بغير أسمائهم، ونهوا عن التعريف

بالألقاب، وتغيير الأنساب، والأسماء التي لهم؛ فجعل النهي معلَّلًا بكونه إذا كان التعريف بذلك يسوءُهم، ويغيظهم، والله أعلم " [١].

قلت: فعَّل الإمام هنا الدلالة اللغوية؛ ببيان أنَّ مادة: (ن ب ز) تستعمل فيما تكرهه النفس، ويسوءُها، وليس المعنى: النهي عن مجرد التلقيب.

وعليه قال الإمام ابن عطية: " هو ما يعرف به الإنسان من الأسماء التي يكره سماعها، وليس من هذا: قول المحدثين: سليمان الأعمش [٢]، وواصل الأحدب [٣]، ونحوه؛ ممَّا تدعو الضرورة إليه، **وليس فيه قصد استخفافٍ، وأذًى** " [٤].

وهذا ما صرح به الإمام الماوردي قائلًا: " أمَّا مستحب الألقاب ومستحسنها، فلا يكره، وقد وصف النبي ﷺ عددًا من أصحابه ﷺ بأوصافٍ؛ فصارت لهم من أجمل الألقاب "[٥]. **وقال الزمخشري:** " أمَّا ما يحبه ممَّا يزينه، ويُنَوِّهُ به؛ فلا بأس به " [٦]. **ومن ثَمَّ قال الإمام الألوسي مستنبطًا:** " يعلم من الآية: أنَّ التلقيب ليس محرمًّا على الإطلاق، بل المحرم ما كان بلقب السوء " [٧]. **وقال الإمام ابن عاشور:** " المراد بالألقاب في الآية: الألقاب المكروهة، بقرينة: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**. واللقب: ما أشعر بخسةٍ أو شرفٍ، سواء كان ملقبًّا به صاحبه، أو اخترعه له النابز له.

---

(١) تفسير الماتريدي: ٩/ ٣٣٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) " هو: ابن مهران أبو مُحَمَّد الكاهلي، وكان أصله من (دباوند)، رأى أنس بن مالك ﷺ يصلى، ولم يسمع منه، ولم يسمع من ابن أبي أوفى، روايته عنه مرسل، ولم يسمع من عكرمة، روى عن: أبي وائل شقيق بن سلمة، وزيد بن وهب. روى عنه: الثوري، وشعبة. وعن يحيى بن معين: أنه قال: سليمان بن مهران الأعمش ثقة ". الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم: ٤/ ١٤٦. وقيل: "سليمان بن مهران الأعمش الكاهلي الأسدي من أهل الكوفة، روى عن أنس بن مالك ﷺ، وأبي وائل وأبي صالح، وغيرهم، روى عنه الناس، وشهرته تغني عن ذكره، ولد سنة ستين، (ت: ١٤٨هـ) ". اللباب في تهذيب الأنساب، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين بن الأثير: ٣/ ٧٩ بتصرف يسير.

(٣) هو " واصل بْن حيان، ثقة، بَيَّاع السَّابَرِي: بفتح السين، وسكون الألف، وفتح الباء الموحدة، في آخرها راء، نسبة إلى نوع من الثياب، يقال لها: السابرية. وهو كوفي ثقة ثبت، (ت: ١٢٠هـ) ". سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني في الجرح والتعديل، لأبي داود السِّجِسْتاني: صـ ١٠١ وما بعده بتصرف.

(٤) تفسير ابن عطية: ٥/ ١٥٠.

(٥) تفسير الماوردي: ٥/ ٣٣٣.

(٦) الكشاف: ٤/ ٣٦٩.

(٧) روح المعاني: ١٣/ ٣٠٦.

وقد خَصَّصَ النهي في الآية بالألقاب التي لم يتقادم عهدها؛ حتى صارت كالأسماء لأصحابها، وتنوسي منها قصد الذمّ والسبّ " [١].

قلت: وممَّا سبق تَتَمَهَّدَ أسرار تعين المفردة مقامًا، واقتضائها حالًا، ويتأكَّد بديع تمكنها نظمًا، وجليل استحكامها سبكًا؛ إذ لو حذفت، أو أبدلت؛ لفسد المعنى، ولتبادر غير المراد، ولفقدت انسجامها مع عناصر نظمها، ولكانت نافرةً في مقامها، وقلقةً في موقعها، ونادةً عن جميل مناسبتها.

النقطة الثانية: الإيحاء بالبعد النفسي عند طرفيها:

أعلنت ذه المفردة بما حملته في أعماقها من معانٍ، وما انتظمته في عقدها من دلالاتٍ، وما ابتعثته من سامق إشاراتٍ- أسباب التلبس بها، وبواعث الحمل عليها عند فاعليها، مؤذنة ببلوغ الآثار النفسية مبلغها في المفعول به. **ويَتَأَتَّى تفصيل ذلك في المحورين التاليين:**

المحور الأول: المواجهة بإعلان البواعث النفسية عند فاعليها:

كشفت المفردة عن حقيقة الدوافع النفسية الداعية لها عند فاعليها، مرشدةً إلى قبح أسبابها الباعثة عليها، معلنةً ضمنًا ظلمات دواخلهم، ومسجلةً انحراف نفوسهم، ومصرحةً بخلل مشاعرهم، وتوجُّهها إلى الشرور، ورغبتها في السوء، وتعلُّقها بالإيذاء، متقصدةً النفس، واضعةً منها، محطمةً لها، منشدةً إذلالها، وإنَّما يتضح ذلك في ضوء **مدلولات:** الفضح، وكشف الستر، والتداعي على وجه التعيُّر، والتسفُّل بما يسوء، وذكر ما يذمُّ، ويشين، ويؤذي؛ ممَّا يكشف عن إرادة النيل من النفوس، والرغبة في الإساءة إليها، وإنشاد تحقُّقِ غيظها... وغير ذلك؛ ممَّا يستهدف قطع الأواصر النفسية، ويعكر صفو الأخوة الإيمانية!

ومن ثَمَّ فقد تحقَّق من خلالها، مبدأ كون الجزاء من جنس العمل؛ حيث قد استهدفوا نفسية غيرهم: فضحًا، وإيذاءً؛ فاستهدفت المفردة دواخلهم: كشفًا، وإعلانًا.

ومن هنا فقد حملت هذه المواجهة في طياتها، بوادرَ التمهيد للعلاج المنشود، والمناهضة الفعالة، ووطَّأَتِ النفوس، ومَهَّدَتِ الطريق للإذعان لمقتضى النهي المذكور.

المحور الثاني: الكشف عن الأثر النفسي المستتبع لها:

كما كشفت عن الأثر النفسي الذي ينجم عنها، وفسَّرَت الخلل الاجتماعي الذي يستتبعها بصورةٍ

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٩ بتصرف يسير.

حسيةٍ معبرةٍ؛ فأومأت إلى أنَّها من الثقل النفسي، والإيذاء المعنوي بأقصى مكانٍ، يصور هذا **مدلول**: (السعف)، وهو مدلول حسي له بعده الإيحائي، ووقعه البلاغي، وظله الإشاري؛ إذ يكشف عن نفسية الموصوف به بدقةٍ لا نظير لها؛ إذ " إنَّه أصل يدل عَلَى يُبْسِ شَيْءٍ، وَتَشَعُّثِهِ، فالسَّعَفُ جَمْعُ سَعَفَةٍ، وَهِيَ أَغْصَانُ النَّخْلَةِ؛ إِذَا يَبِسَتْ. وَمِنَه: السَّعْفَةُ: قُرُوحٌ تَخْرُجُ بِرَأْسِ الصَّبِيِّ " [1]. ممَّا يوحي بارتسام نفسيةٍ يابسةٍ، قد أحيطت بأسباب التحطم، والانهيار، إضافةً إلى ضروبٍ من الألم المتشعب؛ ومن ثَمَّ فأسهمت هذه الصورة الحسية في نقل المعنى من دائرة الماديات، إلى فلك المعاني عارضةً له في حيز المشاهدات؛ لارتسام ما يخلفه النبز من آثارٍ معنويةٍ دامغةٍ، وسلبياتٍ نفسيةٍ هادمةٍ، وأخلاقٍ سوداء ظالمةٍ محطمةٍ.

وهذا ما تجلَّى في تعبيرات السادة المفسرين؛ **فقال الإمام الماتريدي**: " جعل النهي معلَّلًا بكونه إذا كان التعريف بذلك يسوءُهم، ويغيظهم " [2].

يدلُّ على هذا– أيضًا– **مدلولات**: القذف بالمكروه، والترامي به، والتعيُّر والتسفُّل بما يسوء، وما ينتج عنها من: الاستهانة، وترك الاحترام، وانتقاص الذات، وارتفاع الثقة. **ومدلول**: وضع اللقب المكروه على الرجل، وما فيه من الإيحاء بمعنى التكليف، والتحميل الشاق المتعالي. **ومدلول**: مجرد التسمية بالشيء وإن لم يكن فيه، وما يتصوَّر في ظلِّهِ من معنى الافتراء، والبهتان.

كاشفةً بذلك عن المظهر السلبي الذي يخلفه التنابز، مبينةً الأثر النفسي الفادح الذي يستتبعه، والألم المعنوي الشديد الدامغ الذي يستصحبه. **وفي هذه المناسبة قال الزمخشري حادًّا**: " هو ما يتداخل المدعوّ به كراهة؛ لكونه تقصيرًا به، وذمًّا له، وشينًا " [3]. **وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب ملمحًا إلى فداحة أثرها**: " من الآفات التي تهدد كيان المجتمع، وتقوض بنيانه: شيوع الاستخفاف بأنفسهم، وعدم التحرُّج من ذكر بعضهم بعضًا بالمقابح والمساوئ، فهذا إنَّما يكون من إفرازات الجماعات المتحلِّلَة من القيم الخلقية، التي تتبادل [4] المنكرات، كما تتبادل السلع الرخيصة في البيع والشراء، ذلك أنَّ الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء من الألقاب، لا يسوءُه كثيرًا أن يعيبه الناس، وأن

(١) مقاييس اللغة (سعف): ٣/ ٧٣ بتصرف.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٩/ ٣٣٤ وما بعدها بتصرف.

(٣) الكشاف: ٤/ ٣٦٩.

(٤) قلت: آثر الشيخ التعبير بصيغة المفاعلة؛ اتساقًا لصورة المفردة البنائية، واستجابةً لطابع قالبها الصرفي.

يرجموه بكلِّ سوءٍ " [١].

كما انطوت على أسمى الإشارات؛ فأوحت إلى أنَّ النسبة إلى غير الإسلام، أو المعايرة بالمعاصي، تسبب ألَمًا نفسيًّا، وتخلِّف إيذاءً معنويًّا؛ ممَّا يُعْلِي شأن الإسلام، ويفصح عن عظيم مكانته، ويقرِّر تمكنه في نفوس أتباعه، وصدق التحقُّق به من قبلهم؛ فيبلغ الكشف عن الأثر النفسي مبلغه، ويتقرَّر معالجته منوطةً بتسليتهم على آكد وجه وأبلغه.

النقطة الثالثة: المواجهة الإلهية لما يسوء النفس البشرية:

جاءت تلك المفردة في سلك المنهيات التي تأبى الانتظام في سلك الإيمان، وتندُّ عن جميل شرائع الرحمن ﷻ، التي استهدفت الحفاظ على نفسية الأنام، وكان من أسمى مقاصدها: رعايتهم والعناية بهم على أتم وجه وأعلى مقام.

ومن هنا فقد جاءت تلك اللبنة القرآنية معالجةً خللًا اجتماعيًا، ظهر في البيئة الإسلامية آنذاك. وقد كان لهذا العلاج وتلك المواجهة منهجٌ محددٌ، وملامح مقررةٌ، ومظاهر معلنةٌ. **وهذا ما ترتسمه المحاور التالية:**

المحور الأول: التوسع المعنوي في التعبير القرآني، وأثره التفسيري:

قد جاءت المفردة ناهيةً عن التنابز، معربةً عن حقيقته، منفرةً منه، مستوعبةً صوره، وجامعةً أنماطه، سواء أكانت واقعةً، أم متوقعةً، وحاملةً مبدأ التدرج في الإفصاح عن المعاني؛ حيث أكَّدت أنَّ المنهي عنه هو: القول القبيح، ومجرد ذكر ما يسوء النفس، والتسمية بما يكره... وغيرها، ثُمَّ توسعت فتدرَّجت، وترقَّت إلى تضمُّن النهي عن الإشاعة بذلك، والإذاعة به، واتخاذه لقبًا ثابتًا، معلنةً أنَّ النهي متعلقٌ بكلِّ لقبٍ يسوء، سواء كان هو المخترع له، أو لا.

وممَّا لا ريب فيه: أنَّه قد كان لهذا العموم المعنوي، وذلك التوسع الإبداعي، شأنٌ بديعٌ في النظم لا يجارى، ووقعٌ بلاغيٌّ جليل في السياق لا يبارى. ومن ثَمَّ فقد كان النهي عمَّا يكره تعويلًا على ما أفادته مادة (ن ب ز) بكلِّ أنماطه، وشتى صوره، وجميع أحواله- كان دليلًا على وجه إعجاز القرآن الاجتماعي؛ حيث إنَّه يصدق على كلِّ ما كان ماضيًا من أحوالٍ، وما سيكون مستقبَلًا من مستجداتٍ، من شأنها العصف بوحدة الصف المسلم، وخلخلة أركانه، مقررةً بذلك إلهية المنهج

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٣/ ٤٤٩.

القرآني، حاملةً دعائم سموِّ نظمه، وبراهين إعجاز بيانه.

المحور الثاني: إعلان البواعث النفسية والآثار السلبية جراء مقارفتها:

آذنت مطاوي المفردة بإعلان بواعثها التي قادت إليها، ودوافعها التي حملت النفوس عليها، ممثلةً في أبعاد: الكراهية، وظلام النفس، وانحرافها، وخلل المشاعر، وشرور تعلقاتها، وقبيح رغباتها. كما كشفت عن الآثار السلبية المخلفة عنها، والمترتبة عليها، مصورةً في أبعاد: التحطم المعنوي، والانهيار الشعوري، والألم المادي، والثقل النفسي، واليبس الداخلي.. إلخ؛ فكانت بما انتظمته في عقدها من بواعث عليها، وآثار ناجمة عنها، من أكبر سبل المواجهة لحقيقتها؛ إذ إنَّ ذلك لا يرتضيه الخلق القويم، ولا تقبله شرائع الدين المتين، ولا يستقيم مع القلب السليم؛ فكفى بحقيقتها ناهيًا، وبمنظومة مطويها زاجرًا، وبما انطوت عليه من معانٍ معالجًا ومواجهًا.

المحور الثالث: إعلان أسباب النهي عنها:

قد انبعثت المفردة بأسباب النهي عنها، وحملت في طياتها دعائم التنفير منها؛ ببيان عظيم قبحها، وإعلان بليغ سلبية أثرها، وحقيق نفور الفطر السليمة عنها، وإباء النفوس كراهيةً لها؛ إذ إنَّها حملت في مطاويها ما لا يليق وشأن المسلمين، ولا تدعمه أخوة الدين؛ ومن ثَمَّ أوثرت؛ لكثرة ورودها فيما كان ذمًّا، وبغضًا، وعيبًا، وشينًا، ولشدة تعلُّقها بما كان إساءةً، وتقصيرًا، وغيظًا.

كما أومأت إلى ما يبشعها، ويقبّح صدورها؛ لكونها تؤول إلى معنى الظلم؛ بوضع الشيء في غير موضعه، وعلى غير هدفه المراد، وغايته المنشودة؛ حيث قد تركوا بذلك الفعل المشين أسماء البشر، وهي ما يرتفع به المرء على غيره، ويسمو بوضعه، بما هو على العكس منها، وعلى غير مرادها، وغايتها؛ فيعدُّ ظلمًا؛ لأنَّه نوعٌ من وضع الشيء في غير موضعه، مع تضييعه هدفًا ساميًا، وتفويته قصدًا نبيلًا، من تحقيق رفعة منزلة المسمى، وإنشاد علو مقامه، مع تحقُّق كامل العناية به، والتوجُّه نحو إثبات شخصه، وتعيُّن ذاته.

كما انتظمت في مطاويها معنى: مجرد التسمية بشيءٍ وإن لم يكن فيه، وبانضمام هذا الظلم إلى معاني: القبح، والسوء، والكراهية؛ يبلغ تصور البهتان مبلغه، ويرتسم الافتراء، ويتحقق الخداع على آكد وجه، وأبلغه!

ذلك، وحيثية الخداع تكمن في أنَّ المدعو بما ليس فيه، يظنه الناس على غير واقعه، ويتعاملون معه على خلاف حقيقته، وقد يتجنبونه بسبب ما قيل بشأنه؛ فيصيرون بذلك مخدوعين؛ فأسهم النبز في

تحقُّق الظلم من كلِّ جهةٍ.

لاسيما إذا كان ذلك على سبيل الثبوت، والذي يعدُّ نوعًا من قلب الحقائق، مع تحقُّق إشاعته؛ ممَّا يومئ إلى محو الأصل، وتغييره بما يكره، ويسوء، ويشين، يتجلَّى ذلك- أيضًا- في ضوء **مدلولات**: وضع اللقب المكروه على الرجل، التسمية به، اللقب الثابت، وذكره، والإشاعة به، وإذاعته.. إلخ.

ومن المقرر: أنَّ في إعلان أسباب النهي مواجهةً له على أتم وجهٍ وأبلغه؛ لأنَّه بذلك يعلِّل النهي، ووجوب الانتهاء، أي: يبيِّن لماذا نهى الله ﷻ عنه؟ ولماذا علينا أن نمتثل؟ ومن ثَمَّ فكان أوقع أثرًا للإعراب عن آثاره، وأقرب امتثالًا؛ للإيذان بحيثياته، والإشعار ببواعثه.

المحور الرابع: الإسهام في الردِّ على الفاعلين تحقيقًا للتسلية، وتذكيرًا بحقيقة الحال:

ومن بديع المعالجة: أنَّ المفردة قد أسهمت في الردِّ على الفاعلين، والتسلية لِمَنْ لا يقترف هذا الفعل المشين؛ حيث انطوت على معاني: النسبة إلى الشرك والفسق بعد الاتصاف بضدهما، والمعايرة بما سلف، والتسمية بالأعمال السيئة بعد الإسلام، أو باسم دين قبل الإسلام؛ ممَّا يسهم في تصوير مدى تمكن الإسلام من نفوس معتنقيه، وعظم مكانته في قلوب متبعيه، وهي بذلك تفصح عن قوة إيمانهم، وصدق اتباعهم؛ ممَّا يُنَوِّهُ بحقيقة حالهم، ويذكِّر بواقع مآلهم، ويحقِّق تسليتهم، ويدعو إلى وجوب احترامهم، وضرورة الستر عليهم، كما يحذِّر من اقتراف أسباب إيذائهم، والنيل منهم، ويتوعَّد على الطعن فيهم، والتوجُّه إلى فضحهم، ويدعو إلى الإقلاع والانتهاء عمَّا يسوءُهم بما لا غاية وراءه!

المحور الخامس: الكشف عن مردود التلقيب بما يسوء، والمعايرة بالمعاصي:

حذرت المفردة من الإساءة بالتلقيب، والمعايرة بالمعاصي، ونفَّرت من التذكير بالشرك، والنسبة إلى دينٍ آخر بعد الإسلام، وغير ذلك ممَّا حمل في مطاويها من معانٍ، ودلالاتٍ.

وكان من ضمن محاربة تلك الفعلة النكراء: أنَّ المفردة هنا انطوت على ما يفهم مردودها، وذلك في ضوء **مدلول**: مجرد التسمية بشيءٍ وإن لم يكن فيه، ووضع ما يكره، ويسوء، ويذمُّ، ويشين؛ ممَّا يؤكِّد أنَّه أمرٌ يستطيعه كلُّ شخصٍ، وفي مكنة الجميع، فمتى قام به البعض؛ وجد بسهولة مقابله من الآخر، بما تحقَّق له من آثارٍ سلبيةٍ منعكسةٍ على النفسية، لاسيما في ضوء دلالتها الصرفية على ما سيأتي؛ ممَّا يدعو للإقلاع عنها، ويحذِّر من مقارفتها، ويرهِّب من قبح مآلها.

قال الإمام الرازي: " أمَّا النبز: فلا يعجز كلُّ واحدٍ عن الإتيان به؛ فإنَّ مَنْ نبز غيره بالحمار، وهو

ينبزه بالثور وغيره، فالظاهر: أنَّ النبز يفضي في الحال إلى التنابز " [١].

قلت: لاسيما وأنَّ الفاعل لذلك قد أعطى حيثيات نبزه، وأوزع على معايرته؛ إذ إنَّه بفعله صار خارجًا عن مقتضيات الإيمان، مخالفًا لمنهج الرحمن ﷻ، كما يفهم في ضوء الآية الكريمة؛ حيث افتتحت بنداء الإيمان؛ للتأكيد على أنَّ المنادى لأجله من مقتضياته، ولوازمه؛ ومن ثَمَّ فهو بالمعايرة أجدر وأولى، وبالنبز أحق وأحرى!

النقطة الرابعة: دعوة المفردة إلى كريم الخلال:

وبناءً على ما تقدَّم بيانه يَتَسَنَّى القول: بأنَّ المفردة قد دعتْ ضمنًا إلى كريم الخلال، وأسمى الصفات؛ إذ إنَّها قد نَهَتْ عن ذكر ما يسوءُ، ويُكْرِهُ، معلنةً ضروبه، مستوعبةً أحواله، منددةً بفاعليه، مواجهةً له؛ ومن ثَمَّ تكون في المقابل قد أوجبت التحقُّق بما يستقيم فطرةً، ويبتغى طبعًا، ويطلب عقلًا، ويرتضى دينًا، ويقبل شرعًا، ويسرُّ نفسًا، ويسلم قلبًا.

وفي هذا الصدد قال الإمام ابن عاشور: " قد تعرَّضت الآية الواقعة عقب هذا النداء لصنفٍ مهمٍ من معاملة المسلمين بعضهم لبعضٍ، ممَّا فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها، وهي من إساءة الأقوال، **ويقتضي النهي عنها: الأمر بأضدادها** " [٢].

ومن السنة المقررة لهذا المعنى: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ يُصَفِّينَ لَكَ وُدَّ أَخِيكَ: تُسَلِّمُ عَلَيْهِ؛ إِذَا لَقِيتَهُ، وَتُوَسِّعُ لَهُ فِي الْمَجَالِسِ، **وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ**» [٣].

هذا، وقد تعاضدت السنة الفعلية مع السنة القولية، ففي رواية: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْجِبُهُ أَنْ يَدْعُوَ الرَّجُلَ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ، وَأَحَبِّ كُنَاهُ» [٤].

النقطة الخامسة: تناغم المفردة مع عناصر نظمها، واستجابتها لفرائد صرحها:

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٠٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٦.

(٣) أخرجه الطبراني: باب (الميم)، مِنْ بَقِيَّةِ مَنْ أَوَّلُ اسْمِهِ (مِيمٌ)، مَنِ اسْمُهُ مُوسَى، برقم (٨٣٦٩). المعجم الأوسط، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير أبي القاسم الطبراني: ٨/ ١٩٢. قال الهيثمي: " رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير، وهو ضعيف". مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي: ٨/ ٨٢.

(٤) أخرجه الطبراني: باب (الحاء)، حَنْظَلَةُ بْنُ حِذْيَمِ بْنِ جُمُعَةَ الْمَالِكِيُّ، برقم (٣٤٩٩). المعجم الكبير: ٤/ ١٣. قال الإمام الهيثمي: "رواه الطبراني، ورجاله ثقات ". مجمع الزوائد: ٨/ ٥٦.

تلألأ ممَّا سلف: أنَّ البنية القرآنية قد اتسقت مع منظومة عناصرها من النواهي الواردة في سلكها، والتي حملت في طياتها ما يكشف عن حقيقتها، ويرتسم صورها، ويفصح عن أسباب النهي عنها، ويعلن قبح جريرتها؛ فكانت من مقتضيات حال سياقها، ومتممات أركان سبكها؛ حيث قد أسهم النهي عنها بما حملته في أعماق مكنوناتها، في الحفاظ على النفس البشرية، وتدعيم مبدأ الأخوة الإيمانية بما لا يخفى! **هذا من ناحية اللفظ.**

المسألة الرابعة: الدلالة الصرفية للمفردة، وأثرها التفسيري:

أمَّا من ناحية البناء: فقد تظاهرت الدلالة الصرفية مع الدلالة اللغوية والأوجه التفسيرية في بيان المعنى، وتحقيق المراد؛ حيث قد جاءت المفردة على صيغة التفاعل، مع تحقق الاقتطاع من أصل بنيتها. وقد كان لهذا أثرٌ تفسيريٌ سامقٌ لا يُنْكَرُ، وبعدٌ معنويٌ فائقٌ لا يُغْفَلُ. **وفيها نقطتان:**

الأولى: قالب التفاعل، وأثره في النظم:

أسهمت صيغة التفاعل في تحقُّق الفعل من جانبين. **ومن ثَمَّ قيل:** " **(تَنَابَزُواْ)**: نَبَزَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا " (١).

قلت: وفي هذا ما يجلِّي عظيم الأثر، وبعده، واتساع رقعته، بتعدد أطرافه؛ استهجانًا له، وتقبيحًا لصدوره، ونأيًا للمسلمين عن الوقوع فيه، وتنزيهًا لهم عن تعاطيه.

وفي هذا الصدد قال الإمام الرازي: " قال ﷺ: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**، ولم يقل: لا تنبزوا كما في: **(تَلْمِزُوٓاْ)**، وذلك لأنَّ اللماز إذا لمز؛ فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيبًا يلمزه به، وإنَّما يبحث عنه، ويتبعه؛ ليطلِّع منه على عيبٍ؛ فيوجد اللمز من جانبٍ. **وأمَّا النبز:** فلا يعجز كلُّ واحدٍ عن الإتيان به؛ فإنَّ مَنْ نبز غيره بالحمار، وهو ينبزه بالثور وغيره، فالظاهر أنَّ النبز يفضي في الحال إلى التنابز، ولا كذلك اللمز " (٢).

وتبعه النيسابوري قائلًا: " إنَّما قال: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)**، ولم يقل: ولا تنبزوا على منوال: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ)**؛ لأنَّ النبز لا يعجز الإنسان عن جوابه غالبًا، ولا كذلك اللمز؛ فإنَّ الملموز كثيرًا ما يغفل عن عيب اللامز؛ فلا يحضره في الجواب شيءٌ؛ فيقع اللمز من جانبٍ واحدٍ فقط " (٣). **وقال الإمام**

(١) المصباح المنير (نبز): ٢/ ٥٩٠.
(٢) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٩ بتصرف.
(٣) تفسير النيسابوري: ٦/ ١٦٥ بتصرف.

الألوسي معلِّلًا: " هذا، وغوير بين صيغتي: **(تَلْمِزُوٓاْ)**، و**(تَنَابَزُواْ)**؛ لأنَّ الملموز قد لا يقدر في الحال على عيبٍ يلمز به لامزه؛ فيحتاج إلى تتبُّع أحواله؛ حتى يظفر ببعض عيوبه، بخلاف النبز؛ فإن مَنْ لُقِّبَ بما يكره، قادرٌ على تلقيب الآخر بنظير ذلك حالًا؛ فوقع التفاعل، وقيل: **(تَنَابَزُواْ)**؛ لأنَّ النهي ورد على الحالة الواقعة بين القوم " (١).

ذلك، وقد تكون صيغة التفاعل للدلالة على كثرة الفعل وتفشيه. **ومن ثَمَّ قال الإمام ابن عاشور:** " إنَّما قال: **(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ)** بصيغة الفعل الواقع من جانبٍ واحدٍ، وقال: **(وَلَا تَنَابَزُواْ)** بصيغة الفعل الواقع من جانبين؛ لأنَّ اللمز قليل الحصول، أمَّا النبز فهو كثيرٌ في الجاهلية في قبائل كثيرة، منهم: بنو سلمة بالمدينة " (٢).

فـ " روي: أن وفد بني سليم قدموا على النبي ﷺ وللرجل منهم اسمان وثلاثة؛ فكان يدعو الرجل بالاسم؛ فيقال: إنَّه يكره هذا؛ فنزلت هذه الآية " (٣).

قلت: ومن جملة ما سبق يتبيَّن أنَّه قد سبك النظم على مبدأ الترقي لا على العكس كما قيل (٤)، وحيثية ذلك تكمن في كون النبز بالألقاب يدلُّ على مجرد التسمية، وهي في مقدرو الطرفين كما تقرَّر، وتسهم في تحقُّقه صيغة التفاعل، ومن ثَمَّ فيتحقَّق الأثر السلبي على النفسية من طرفين؛ إذ إنَّ كليهما فاعلٌ، ومفعولٌ به، وفيه من التهاون بالحقوق، والحطِّ من أقدار الآخرين، والاستهانة بهم، وفقدان احترامهم، وانعدام الثقة فيهم ما لا يخفى. **ومن المعلوم:** أنَّ الألم المعنوي أكثر أثرًا، وأشد وقعًا، وأفدح ألَمًا؛ إذا ما اتسعت دائرته، وتعددت أطرافه، لاسيما إذا تحقَّق فيه عنصر التقابل الحالي، والتواجه التصريحي، ولا كذلك الحال بالنسبة للسخرية، واللمز؛ إذ إنَّها من طرفٍ واحدٍ. أمَّا اللمز فهو من طرفين، إلَّا أنَّ الملموز يحتاج إلى تتبع اللامز؛ ليظفر ببعض عيوبه، ويطعنه بها كما تفصَّل.

الثانية: الاقتطاع في بنية المفردة، وأثره التفسيري:

هذا، " والأصل في قوله ﷻ: (وَلَا تَنَابَزُواْ): لا تتنابزوا؛ أسقطت إحدى التاءين " (٥).

(١) تفسير الألوسي: ١٣/ ٣٠٦.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٩.
(٣) النكت والعيون: ٥/ ٣٣٢.
(٤) ينظر مفاتيح الغيب: ٢٨/ ١٠٨ وما بعدها.
(٥) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٩ بتصرف يسير.

قلت: وقد أسهم هذا الحذف في حصول كامل البلاغة، وبديع المبالغة؛ حيث أكَّد أنَّ المنهي عنه أقل ما يكون من الفعل: حدثًا، وزمنًا، وإذا وقع النهي عن الجزء القليل؛ كان عن الكثير أولى، وأحرى؛ فكان هو الأدخل في وجوب الانتهاء عنه، والأظهر في ارتسام شديد الأثر المستتبع له، والأوقع للتحذير منه، والأبلغ في مواجهته، والوعيد عليه. **ومن ثَمَّ قال أ.د/ فاضل السامرائي:** " إنَّه يحذف من الفعل؛ للدلالة على أنَّ الحدث أقلُّ ممَّا لم يحذف منه، وأنَّ زمنه أقصر، ونحو ذلك، فهو يقتطع من الفعل؛ للدلالة على الاقتطاع من الحدث " [(١)]. **هذا من وجهٍ.**

ومن وجهٍ آخر: فقد حمل انتقاص بنائه الإيحاء بانتقاص فاعليه، مصورًا سوء حالهم على أتمِّ وجهٍ وأبلغه؛ حيث أومأ إلى ما يخلِّفُهُ هذا الفعل من آثارٍ نفسيةٍ وخيمةٍ، وملامحَ سوداءَ مهينةٍ، أَدَّتْ إلى انتقاصِ الفاعلين، وارتسمت ضِعَة الملابسين، وصوَّرت حطَّ منزلة المتعاطين. **وبيان ذلك:** أنَّه لَمَّا كان التنابز فعلًا مشينًا، ينشأ عنه سلبياتٌ محطمةٌ، ومظاهرُ ظالمةٌ؛ إذ تؤول آثاره إلى الاستهانة بالحقوق، والتجاوز فيها، والحطِّ من الكرامة، وترك الاحترام، والتقليل من الذات.. إلخ- لَمَّا كان الحال ذلك، فممَّا لا شك فيه: أنَّ في ذلك حتمًا تقليصًا لمكانة فاعليه، وانعدامًا للثقة فيهم، وانتقاصًا لأقدارهم؛ ومن ثَمَّ فيقع بليغ التناسب، وبديع الاتساق، بين الاقتطاع من الفعل، والانتقاص من شأن فاعلية بما لا غاية وراءه، ولا مرمى بعده!

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، للأستاذ الدكتور/ فاضل صالح السامرائي: صـ ١٣ بتصرف يسير.

المبحث الرابع

العقاب المترتب على الجرائم المذكورة

أتبع الحق ﷻ الجرائم المتقدمة بالوعيد المترتب عليها، والجزاء المناسب لها، فقال ﷻ في أعقاب سلك المنهيات: **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)**.

قلت: فانطوى المذكور على أبلغ المعاني، وأبدع الإشارات؛ حيث قد ذمَّ، ووصف المخصوص بالذم بالفسق، وتَمَّ تهجين نسبة الفسق ومقارنته للإيمان، وآذن بكونه ذنبًا ينبغي التوبة منه، ووصف مَنْ لم يتب من تلك الجرائم بكونهم ظالمين على سبيل الحصر، مع تسجيل بعدهم عن الله تعالى المفهوم من الإشارة بالبعد **(أُو۟لَٰٓئِكَ)**، وكلُّ ذلك مؤذنٌ بالوعيد، وموغلٌ في التهديد، وأدخل في النهي، وأظهر في الذمِّ، والتنديد، وأبلغ في التحذير، والتبكيت، وأشد في الزجر، والتعريض. **وهذا إجمالٌ مطويٌ ينشره تفصيلًا المطلبان التاليان:**

المطلب الأول: وجه النظم:

ذكر السادة المفسرون في نظم العقاب المذكور وجهين، فمنهم مَنْ نظر إليه باعتبار كلِّ ما تقدَّم من منهياتٍ، ومنهم مَنْ فهم تعلقه بخصوص بعض أفراده، ممثلةً في النهي عن التنابز. وفيما يلي توضيح لذلك.

قال الإمام الطبري شارحًا: " يقول تعالى ذكره: ومَنْ فعل ما نهينا عنه، وتقدَّم على معصيتنا بعد إيمانه؛ فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن، ونبزه بالألقاب؛ فهو فاسق **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)**، يقول: فلا تفعلوا؛ فتستحقوا إن فعلتموه أن تسموا فساقًا " [1].

قلت: أعلن الإمام أنَّهم بتلك الفعال المتقدمة استحقوا أن يوسموا بالفسق، وإنَّما تتصور شناعته بعد وصفهم بالإيمان، وندائهم بمقتضاه، وتذكيرهم بحيثيته، وفيه إيذان من أولِّ الأمر بأنَّ ما نودوا لأجله بذلك الوصف إنَّما هو من لوازمه، فإذ ما أخلُّوا به؛ فقد تعرَّوا عنه، واتسموا بما يشينهم، بعد الاتصاف بما يشرفهم، ويُنَوِّهُ بمكانتهم، ويعلي قدرهم.

وقال الزجاج مقدِّرًا: " **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)**، أي: بئس الاسم أن يقول له: يا يهودي، ويا نصراني وقد آمن، ويحتمل أن يكون في كلِّ لقبٍ يكرهه الإنسان؛ لأنَّه إنَّما يجب أن

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٢/ ٣٠٢.

يخاطب المؤمن أخاه بأحب الأسماء إليه " [١]. **وقال الإمام الرازي ذاكرًا الوجهين، ومرجحًا مطلق التعلُّق:** " قوله ﷻ: **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)**. قيل فيه: إن المراد: بئس أن يقول للمسلم: يا يهودي بعد الإيمان، أي: بعد ما آمن؛ فبئس تسميته بالكافر، ويحتمل **وجهًا أحسن من هذا:** وهو أن يقال: هذا تمام للزجر، كأنَّه ﷻ قال: **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ.. وَلَا تَلْمِزُوٓاْ.. وَلَا تَنَابَزُواْ..)**؛ فإنَّه إن فعل؛ يفسق بعد ما آمن، والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق. ثُمَّ قال تعالى: **(وَمَن لَّمْ يَتُبْ...)**، أمرهم بالتوبة عمَّا مضى، وإظهار الندم عليها؛ مبالغةً في التحذير، وتشديدًا في الزجر " [٢].

وقال الإمام البقاعي مبينًا وجه النظم: " لَمَّا كان الإيمان قيدًا لأوابد العصيان، وكان النبز والسخرية قطعًا لذلك القيد؛ علل بما يؤذن بأنَّه فسق، معبرًا بالكلمة الجامعة لجميع المذامّ؛ **تنفيرًا من ذلك؛** فقال: **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ)**، أي: الخروج من ربقة الدين **(بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)**: ترك الجارّ [٣]؛ إيذانًا بأنَّ مَنْ وقع في ذلك؛ أوشك أن يلازمه؛ فيستغرق زمانه فيه، فمَنْ فعل ذلك؛ فقد رضي لنفسه أن يوسم بالفسق بعد أن كان موصوفًا بالإيمان " [٤].

وقال العلامة أبو السعود: " المراد: **إمَّا تهجين** نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصًا، **أو الدلالة** على أنَّ التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان قبيحٌ " [٥].

وقال الإمام ابن عاشور: " قوله ﷻ: **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)**: تذييلٌ للمنهيات المتقدمة، وهو **تعريضٌ** قويٌّ بأنَّ ما نهوا عنه فسوقٌ وظلمٌ؛ إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة، وبين الجمل التي قبلها؛ لولا معنى التعريض بأنَّ ذلك فسوقٌ، وذلك مذمومٌ، ومعاقبٌ عليه؛ فدلَّ قوله: **(بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)** على أنَّ ما نهوا عنه مذمومٌ؛ لأنَّه فسوقٌ يعاقب عليه، ولا تزيله إلَّا التوبة، وهذا دالٌّ على أنَّ اللمز والتنابز

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٣٦.
(٢) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٠٩ بتصرف.
(٣) قلت: تقدير كلامه، أي: (من بعد الإيمان).
(٤) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٧ بتصرف.
(٥) إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٢١ وما بعدها بتصرف.

معصيتان؛ لأنَّهما فسوقٌ. وفي الحديث: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ**» (١) " (٢).

قلت: ومن جملة ما تقدَّم يتبيَّن أنَّ الأظهر تعلُّق الجزاء بكلِّ الجرائم المذكورة، من السخرية، واللمز، والتنابز، وترتبه على أفرادها؛ لأنَّه لا وجه لتخصيص الجزاء وقصره فهمًا على بعض الأفراد، لاسيما وأنَّها كلها من قبيل الفسوق الذي يعني الخروج عن طوق الإيمان، والبعد عن مقتضياته، والند عن شرائع الرحمن ﷻ، وترك منهجه.

المطلب الثاني: تناغم فرائد الجزاء مع الفعل المتوعد عليه:

قلت: قد تناغم الجزاء بكلِّ أركانه، وجميع فرائده، مع الأفعال التي آلت إليه، وقد جاء الجزاء ذا شقين. **الأول:** الذمّ على ما تقدَّم. **الثاني:** التهديد الصريح على عدم التوبة. وهذا ما تُعْنَى ببيانه المسائل التالية:

المسألة الأولى: بدء سلك العقاب بأسلوب الذمّ، وأثره التفسيري:

لَمَّا كانت الذنوب المتقدمة عنوان تعاطيها إرادة الذمّ، والحطِّ من شأن الآخرين، وإرادة ضعتهم من الأعين، كان من المناسب أن يكون العقاب مواجهًا للفاعلين بالذمّ من رب العالمين ﷻ، معاملًا إياهم بنقيض قصدهم؛ إذ قد أرادوا بقبيح فعالهم الوضع من غيرهم، فاستحقوا الوضع من بارئهم. كما أفصح ذمهم عمَّا يكشف عن نفسيتهم تجاه الآخرين، ويعلن محاولتهم في النيل منهم، لاسيما إذا ما تقرَّر في العقول حسن كون الجزاء من جنس العمل. وبناء عليه فيكون البدء بأسلوب الذم حاملًا آثاره التفسيرية السامقة، وإشاراته البيانية الرائقة. ومنها: **أولًا:** إسهامه في الكشف عن سوء طويتهم، التي قادتهم إلى ذمّ غيرهم، ودفعتهم إلى إيذائهم. **ثانيًا:** انطواءُه على ما به يتمُّ المواجهة؛ لتضمنه معاملتهم بنقيض قصدهم؛ إذ ورد على نفسية سوداء أرادت السوء لغيرها فلحقها، وتوجهت بالشر إلى مَنْ عداها فعاد بالوبال إليها، وردَّ بالردى عليها، مع التفاوت البيِّن بين ذمّ البشر لبني جنسهم، وبين ذمّ الخالق لِمَنْ استحق بسوء قصده، وسوء استعداده. **ثالثًا:** حسن اقترانه بما قبله من

(١) هذا جزء من حديث صحيح، متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، من حديث عبد الله ﷺ، برقم (٤٨). صحيح البخاري: ١/ ١٩. والإمام مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، برقم (٦٤). صحيح مسلم: ١/ ٨١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٩ بتصرف.

النهي عن التنابز، وبلاغة اتساق موقعه؛ لأنَّ التنابز من باب الأسماء أصالة.

المسألة الثاني: إيثار التعبير بعنوان الاسم، وأثره التفسيري:

التعرض لعنوان الاسم له عظيم وقعه في النظم، وقوة صداه في السياق؛ لأنَّه في النهي عن تحقير الآخرين، والنيل من نفسيتهم، الذي يقود إلى ضعتهم، والهبوط بهم، الأمر الذي يناقضه العلو، ويأباه الرفعة، ويند عن السمو، في محاولة منهم لرفعة أنفسهم، والشعور بذاتهم، فكان من باب التهكم بهم أن جعل فاعل الذمّ (الاسم) ومخصوصه (الفسوق) عنوان رفعتهم، ومتعلق علوهم، ومناط سموهم.

ومن ثَمَّ قال الخليل: " الاسم: أصلُ تأسيسِهِ: السُمُوّ، وألفُ الاسمِ زائدةٌ، ونقصانُه الواوُ، فإذا صَغَّرتَ قُلْتَ: سُمَيّ. وسمّيت، وأَسْمَيت، وتَسَمَّيْت بكذا.. وسَماوةُ الهِلال: شَخصُهُ إذا ارتفع عن الأُفُق شيئًا " [(١)]. **وفي تلك المناسبة قال الطاهر بن عاشور:** " إيثار التعبير بـ **(ٱلۡاِسۡمُ)** هنا من الرشاقة بمكان؛ لأنَّ السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة؛ إذ الألقاب أسماء؛ فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية " [(٢)].

هذا، وقد تضمن عنوان الاسم حسن المواجهة لفعالهم؛ لأنَّهم إنما فعلوا ذلك تحقيرًا لغيرهم، وإنشادًا لسمو أنفسهم؛ فبيَّن الله ﷻ أنَّ ما يفعلونه إنَّما قادهم إلى ضدِّ ما أرادوا، وآل بهم إلى نقيض ما سعوا، وعاد على أنفسهم بعكس ما طمحوا، وعلى خلاف ما رغبوا؛ ومن ثَمَّ فحسن تعلَّقه بعنوان الاسم بما لا يخفى.

المسألة الثالثة: ذكر المخصوص بالذمّ بموضوع الفسق، وأثره التفسيري:

جاء المخصوص بالذمّ بعنوان الفسق دون ما عداه، لكونه هو الأنسب مقامًا، والأبلغ حالًا؛ إذ أعلن أنَّ ما تلبسوا به إنَّما هو خروج عن كلِّ ما هو ممدوح، وهجر لكلِّ ما هو مطلوب؛ لارتباطه بالترك لأمر الله ﷻ، وتعلقه بالميل إلى المعاصي، وفيه معنى الفضح والكشف اللائق لما فعلوه بغيرهم، والذي ردَّ بالسوء والقبح عليهم؛ معاملة لهم بنقيض قصدهم، كما أطلق على صنف من القوارض التي أمر النبي ﷺ بقتلها في الحرم.

وفي هذا الشأن قال الخليل: " (فسق): الفِسْقُ: الترك لأمر الله ﷻ، وفَسق يفسُقُ فِسقًا وفُسُوقًا.

(١) العين (سمو): ٧/ ٣١٨ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٥٠ بتصرف يسير.

وكذلك الميل إلى المعصية، كما فَسَق إبليس عن أمر ربه ﷻ.. والفُوَيسِقَةُ: الفأرة، وقد أمر النبي ﷺ بقتلها في الحرم " [1].

وقال ابن فارس مؤصِّلًا: " (فَسَقَ): (الْفَاءُ)، وَ(السِّينُ)، وَ(الْقَافُ): كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الْفِسْقُ، وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ. تَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا: إِذَا خَرَجَتْ " [2].

قلت: وبناءً عليه يكون المذكور قد أدلى بدلوه في المواجهة، وأبرز ثماره في العلاج؛ لأنَّ ما تقدَّم من أخلاق ذميمة، وأفعال مشينة، إنَّما هي هجر لمقتضى الإيمان، وخروج عن أمر المنان ﷻ، وترك لشرائع الرحمن ﷻ، وبعد عن الطاعة والإذعان، وميل إلى اتباع نداء سوء النفس، وركون إلى الهوى، واستماع إلى غواية الشيطان، وتلبس بنفس مادة قد أطلقت على حيوان فاسد، وقد أمر بقتله في الحرم؛ ومن ثَمَّ فيبلغ تحقُّق الذم مبلغه، ويتم التحذير، ويعلن الوعيد على آكد وجه، وأبلغه!

المسألة الرابعة: سرُّ التقييد بقوله ﷻ: (بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)، وأثره التفسيري:

لَمَّا كان المقام في مواجهة تلك الأفعال، كان من اللائق الإمعان في التذكير، والإيغال في التبكيت؛ لأنَّ الفسوق مذموم في ذاته، فما بالنا إذا ما كان تبيعًا للإيمان؟! وكيف الحال إذا ما حلَّ محل الخضوع للرحمن ﷻ؟!

ومن ثَمَّ قال الطاهر بن عاشور: " معنى البعدية في قوله ﷻ: **(بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ)**: بعد الاتصاف بالإيمان، أي: أن الإيمان لا يناسبه الفسوق؛ لأنَّ المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازعٌ " [3].

قلت: وعلى ما تقرَّر يتأكَّد أنَّه قد بلغ الذم لهم مبلغًا لا يبارى، وتمَّ التنكيل بهم على وجه لا يجارى!

المسألة الخامسة: إيثار الاسم الموصول في جملة الشرط (وَمَن)، وأثره التفسيري:

جاء التعبير بالاسم الموصول **(مَن)**، وهو مفرد لفظًا وجمع معنًى، فكان لإيثاره هنا بديع ظلاله، وقوة صداه؛ لإثماره أبدع الإشارات، وأصدق الإيحاءات؛ لأنَّه من حيث قلة اللفظ يتناسب مع قلة المتحدث عنهم شأنًا، ويتناغم مع تحقيرهم فعلًا، وكلُّ هذا يعدُّ من باب المعاملة بنقيض القصد. كما أنَّ إفراده لفظًا يلمح فيه عنصر التحديد، حتى لكأنَّ كل واحد ممَّنْ هو داخل في حيز جملة الصلة

(١) العين (فسق): ٥/ ٨٢ بتصرف.

(٢) مقاييس اللغة (فسق): ٤/ ٥٠٢ بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٥٠ بتصرف يسير.

مخاطب بذاته، وعلى حدة، وفيه إشارة سامقة، مبنية على حكمة رائقة، وهي العناية بتوبة كلٍّ، ومخاطبته بذاته، تنبيهًا على أهمية الأمر، وتعينه، فالكلُّ مسئول عن فعله، وعليه أن يتوب من ذنبه، ويقلع عن جرمه. **هذا من وجهٍ.**

ومن وجهٍ ثانٍ: فإنَّ مجيء الموصول وهو لا يفهم ويتعيَّن إلَّا من خلال صلته؛ لافتقاره إلى ما يزيل إبهامه، ويوضح استعماله- مجيئه كذلك أمر له رسالته البيانية؛ لأنه يشعر بأنَّ تحقُّق مضمون جملة الصلة وهو (عدم التوبة) مرتبطٌ أشد الارتباط بتسجيل الظلم؛ نظرًا لتعيُّن تلك الجملة في النظم؛ لإزالتها وجه الإبهام في الموصول، وإسهامها في تعيينه.

ومن وجهٍ ثالثٍ: فإنَّه يتضمن معنى الشرط، وعليه فقد حقَّق بالغ معنى الارتباط، وارتسم شديد عرى الاتصال، بين عدم التوبة، وبين الوسم بالظلم بما لا يخفى.

المسألة السادسة: التعرض لعنوان التوبة في صلة الموصول (لَّمْ يَتُبْ)، وأثره التفسيري:

لَمَّا تقدمت الذنوب، وتصدرت المخالفات، ناسبها الإرداف بالتوبة منها، والتحذير للإقلاع عنها، والرجوع إلى الإيمان، والعود إلى منهج المشرع الحكيم جلَّ وتعالى عن الأنام. **ومن ثَمَّ قال الإمام البقاعي مبرزًا حيثية التناسب:** " لَمَّا كان **المقام بالتحذير أليق**؛ عطف عليه قوله: **(وَمَن لَّمْ يَتُبْ)**، أي: يرجع عمَّا نهى الله تعالى عنه.. " [(١)].

ذلك، وقد جاء التعبير بعنوان التوبة متمكنًا في نظمه، بديعًا في سبكه، متسقًا مع مقامه، منسحبًا على مقتضى حاله. وإنما يتجلى ذلك في ضوء الوقوف على حقيقتها. **وفي هذه المناسبة قال الخليل:** " (توب): تُبْتُ إلى اللهِ تَوْبةً ومَتابًا.. والتَّوْبةُ: الاستِحياءُ، يقال: ما طعامُكَ بطَعامِ تَوْبةٍ، أي: لا يُستَحيى منه، ولا يُحْتَشَمُ " [(٢)]. **وتبعه الزمخشري** [(٣)].

وقال الإمام الأزهري: " أصل (تَابَ): عَاد إِلَى الله ﷻ، وَرجع، وأنابَ. وتَابَ الله عَلَيْهِ، أَي: عَاد عَلَيْهِ بالمغفرة " [(٤)].

وقال ابن فارس: " (تَوَبَ): (التَّاءُ)، وَ(الْوَاوُ)، وَ(الْبَاءُ): كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى الرُّجُوعِ. يُقَالُ:

(١) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٧ بتصرف يسير.
(٢) العين (توب): ٨/ ١٣٨ بتصرف.
(٣) ينظر أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (وأب): ٢/ ٣١٦.
(٤) تهذيب اللغة (توب): ١٤/ ٢٣٦ بتصرف.

تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ، يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ ﷻ تَوْبَةً وَمَتَابًا، فَهُوَ تَائِبٌ " [١].

قلت: وعلى ما سبق يتأكَّد أنَّه قد جاء التعبير بالتوبة مبرزًا أبلغ الآثار، محقِّقًا أسمى الأهداف؛ إذ انطوى على معاني: العودة إلى الله ﷻ، والرجوع عن الذنب، والتي لا تفهم إلَّا في ضوء ارتكاب المخالفات، وانتهاك الحرمات، والتي تتطلب العود، وتقتضي الرجوع، وعليه فقد نَوَّهَتْ من أول الأمر بأنَّ ما فعلوه إنَّما هو من باب المنهيات، ومن قبيل القبائح والمنكرات.

كما أنَّ التعبير بها هنا مؤذن بأصالة الإيمان، وتبعية وعروض الفسوق والعصيان. **وحيثيته:** أنَّ عنوان التوبة يتضمن الرجوع، ومفهومه لا يَتَأَتَّى إلَّا في ضوء الانتقال من شيء إلى آخر. وهم قد انتقلوا بأفعالهم من الإيمان إلى الفسوق والبعد عن منهج الرحمن ﷻ. وفيه إشعار بأولية الإيمان، وأصالته، وتذكير بما طرأ عليه، وحضٌّ على الرجوع إليه.

كما كان من مطاويها: الاستحياء، والاحتشام، وفيه تذكير بقبح الجرائم المرتكبة، وتسجيل لسوء الأفعال المقترفة، ومناهضتها للاستحياء والاحتشام؛ لأنَّ التوجيه إلى مقتضاهما لا يفهم وجهه إلَّا بعد التعري منهما. وفي ذلك- أيضًا- ما يفصح عن ترتُّب وصف الظلم بما لا غاية وراءه.

المسألة السابعة: سرُّ ارتباط جواب الشرط بـ (الفاء)، وأثره التفسيري:

جاء التعبير بالفاء منسجمًا مع منظومته، متسقًا لمقامه، محقِّقًا لأهداف مساقه؛ لأنَّها تفيد التعقيب، وهو الترتيب باتصال، وفيها معنى التسبب، مِمَّا أهَّلَهَا لتكون جوابًا للشرط.

قال أبو القاسم الزجاجي: " (الفاء) تكون عاطفةً تدل على أنَّ الثاني بعد الأول ولا مهلة، وتكون جوابًا للجزاء؛ فيكون منقطعًا ممَّا قبله في الإعراب " [٢].

وفي هذا الشأن قال ابن مالك ناظمًا: (وَالْفَاءُ لِلتَّرْتِيبِ بِاتِّصَالِ ... وَ«ثُمَّ» لِلتَّرْتِيبِ بِانْفِصَالِ) [٣].

وقال شارحًا: " أمَّا (الفاء) فالأصل في استعمالها أن يعطف بها لاحق مرتب متصل بلا مهلة، والأكثر كون المعطوف بها متسببًا، والمعطوف عليه سببًا " [٤]. **وقال الأشموني معلقًا:** " (الفاء للترتيب باتصال)، أي: بلا مهلة، وهو المعتبر عنه بالتعقيب. وكثيرًا ما تقتضي- أيضًا- التسبب إن

(١) مقاييس اللغة (توب): ١/ ٣٥٧ بتصرف يسير.

(٢) حروف المعاني والصفات، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي: صـ ٣٩.

(٣) ألفية ابن مالك: صـ ٢٦١.

(٤) شرح الكافية الشافية: ٣/ ١٢٠٦ بتصرف يسير.

كان المعطوف جملةً " [١].

وقيل: " أصول أقسام (الفاء) ثلاثة: عاطفة، وجوابية، وزائدة. أما العاطفة فهي من الحروف التي تشرك في الإعراب والحكم، ومعناها التعقيب. هذا مذهب البصريين، وما أوهم خلاف ذلك تأولوه. وأما الفاء الجوابية: فمعناها الربط، وتلازمها السببية. قال بعضهم: والترتيب- أيضًا-، كما ذكر في العاطفة.. وإذا كان الجواب لا يصلح لأن يجعل شرطًا وجب اقترانه بـ (الفاء)؛ ليعلم ارتباطه بأداة الشرط. وذلك إذا كان جملة اسمية، نحو: مَنْ يفعل الخير فالله يجزيه. وأما (الفاء) الزائدة فهي ضربان: أحدهما: الداخلة على خبر المبتدأ، إذا تضمن معنى الشرط. نحو: الذي يأتي فله درهم. فهذه (الفاء) شبيهة بفاء جواب الشرط؛ لأنَّها دخلت لتفيد التنصيص على أنَّ الخبر مستحق بالصلة المذكورة. ولو حذفت لاحتمل كون الخبر مستحقًا بغيرها. فإن قلت: فكيف تجعلها زائدة، وهي تفيد هذا المعنى؟ قلت: إنما جعلتها زائدة؛ لأن الخبر مستغن عن رابط يربطه بالمبتدأ. ولكن المبتدأ لما شابه اسم الشرط دخلت (الفاء) في خبره، تشبيهًا له بالجواب. والثاني التي دخولها في الكلام كخروجها. وهذا القسم لا يقول به سيبويه " [٢].

قلت: وبناءً عليه فإنَّ مجيء (الفاء) هنا امرٌ متعين، وشأن مقصود؛ لأنَّها تربط الجزاء بالفعل، مبالغةً في الزجر، وتشديدًا في الوعيد، وإنشادًا لتحقُّق التوبة، وتحريضًا عليها؛ خروجًا من دائرة ذلك الجزاء المعدِّ، ونأيًا من لحوق الوعيد المنصوب.

المسألة الثامنة: إيثار اسم الإشارة (أُوْلَٰٓئِكَ)، وأثره التفسيري:

لَمَّا كان المقام في الذمّ على ما تقدَّم من قبائح، كان الحال بإيراد صيغة الجمع في معرض تسجيل الظلم أدعى، وفي مقام التحذير أحرى؛ إذ أوحت بأنهم لو لم يتوبوا لصاروا في عداد المذمومين والموسومين بالظلم في العالمين، وفيه إلماح إلى عدم تمييزهم، وانتفاء تحديدهم الأدخل في مشاركتهم لهذا الوسم، والأبعد لهم عن التعيين والاهتمام، والأظهر في تلبسهم وتداخلهم مع هذا الجمع الظالم، وانخراطهم في مجموعهم؛ بحيث لا يتميزون عنهم؛ لبعدهم من الله ﷻ الذي استأهلوه بسوء أفعالهم،

(١) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي بن مُحَمَّد بن عيسى، أبي الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي: ٢/ ٣٦٤ بتصرف يسير.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي مُحَمَّد بدر الدين حسن بن قاسم بن عليّ المرادي المصري المالكي: صـ ٦١– ٧١ بتصرف.

وندهم عن منهج ربهم ﷻ. فظهر حسن موقعها في النظم، وبديع مكانها في السبك؛ لأنَّها- أيضًا- من باب المعاملة بنقيض القصد؛ لتضمنها الإلماح إلى بعدهم عن مقتضى الإيمان، والخروج عن ربقة الطاعة والإذعان، والذي استدعى وسمهم بالبعد، ومعاقبتهم بالطرد بما لا يخفى!

ومن ثَمَّ قال الإمام البقاعي مقدرًا: " (فَأُوْلَٰٓئِكَ)، أي: البعداء من الله ﷻ" [(١)].

المسألة التاسعة: إيثار ضمير الفصل، وأثره التفسيري:

جاء ضمير الفصل بوظيفة بيانية سامقة، وهدف في النظم رائق منشود، وهو الإيغال في تسجيل نسبة الظلم، وبيان اختصاصهم به، تناغمًا مع مقام الذمّ، واتساقًا مع فعل الجرائم المعقودة في السياق. **ومن ثَمَّ قال الزمخشري:** " فائدته: الدلالة على أنَّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أنَّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره " [(٢)].

وقال الإمام البقاعي مقدرًا: " (هُمُ)، أي: خاصة **(ٱلظَّٰلِمُونَ)**، أي: العريقون في وضع الأشياء في غير مواضعها " [(٣)].

المسألة العاشرة: إيثار عنوان الظلم، وأثره التفسيري:

هذا، والتعبير بوصف الظلم هنا له وقعه الدلالي، وعمقه الإيحائي، وبعده الإشاري؛ إذ إنَّ مادته هي الأبلغ في التعبير عن الجرائم المذكورة، وبيان سوء آثارها. **قال ابن فارس مؤصلا:** "(ظَلَمَ): (الظَّاءُ)، وَ(اللَّامُ)، وَ(الْمِيمُ): أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا: خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَالْآخَرُ: وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا " [(٤)]. ومن ثَمَّ فقد تناغم مع المذكور على أبلغ وجه، وأحكم تأليف، وأبدع تركيب، وأجل تنظيم [(٥)].

وبيان حيثية ذلك التناغم: أنَّه لَمَّا كانت الجرائم المذكورة من قبيل وضع الشيء في غير موضعه، وقلبًا للحقائق؛ كانت بلا ريبٍ ظلمًا بينًا، وقد تظاهر النظم على الكشف عن حيثية ذلك: إجمالًا، وتفصيلًا، بالتلويح، والتصريح.

---

(١) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٧ بتصرف.

(٢) الكشاف: ١/ ٤٦.

(٣) نظم الدرر: ١٨/ ٣٧٧ بتصرف.

(٤) مقاييس اللغة (ظلم): ٣/ ٤٦٨.

(٥) قال أبو البقاء: " التأليف: هو جمع الأشياء المتناسبة، من الألفة، وهو حقيقة في الأجسام، ومجاز في الحروف. والتنظيم: من نظم الجواهر، وفيه جودة التركب. والتركيب: ضم الأشياء مؤتلفة ". الكليات: صـ ٢٨٨ بتصرف.

أمَّا الإجمال: فبيَّن أنها خارجة عن مقتضيات الإيمان، آبية عن الانتظام في سلك منهج الرحمن ﷻ، ونافرة عن تدعيم مبدأ الأخوة في الإسلام.

وأمَّا التفصيل: فقد تقرَّر أنَّ المسخور منه قد يكون أفضل حالًا عند الله ﷻ، أو في حقيقة الحال، أو مآله، وأنَّ اللمز يقع على النفس، ويعود بأدراجه السلبية إليها، والتنابز مجرد التسمية بما ليس فيه، أو المعايرة بما تاب منه.. إلخ. كما انطوت مطاوي المفردات الثلاث على آثارها السلبية، وملامحها السوداء التي تعود على الفرد والمجتمع على السواء. وممَّا لا شك فيه أنَّ كلَّ ذلك قلبٌ للحقائق الثابتة، وتضييعٌ للأهداف السامية، ومحوٌ للغايات القاصية، وبعدٌ عن الهدايات البينة، والشرائع النيرة؛ فلا أنسب من التعبير بالظلم الذي يتقرَّر قبحه في مقابلتها، ويشتد أثره في المقارنة بها؛ فيستشعر حسن نسبة الظلم إليهم، ووسمهم به على سبيل التفرد، والحصر. وليس هذا فحسب بل إنه يُصَوِّرَ الآثار الناجمة عن تلك الأفعال في صورة انعدام الضياء، وارتفاع النور؛ فلا أدل على قبحها، وسوء أثرها، وشديد سلبيتها، من ذلك الوصف الصادق، والمعبِّر. **ومن ثَمَّ قال العلامة أبو السعود مقدرًا:** " **(وَمَن لَّمْ يَتُبْ)**: عمَّا نهي عنه؛ **(فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)**: بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب " [(١)].

وقال الطاهر بن عاشور: " إذ كان كلٌّ من السخرية واللمز والتنابز معاصي؛ فقد وجبت التوبة منها، فمَنْ لم يتب فهو ظالم؛ لأنَّه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك؛ فكان ظلمه شديدًا جدًا. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم؛ كأنَّه لا ظالم غيرهم؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة؛ ليزدجروا " [(٢)].

قلت: فتَمَهَّدَ مِمَّا سبق أنَّ التذييل المذكور قد تضمن المبالغة في التحذير، والتنفير، والتشديد في الزجر، والوعيد، وتهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين، والتعريض بهم. كما آثر– فضلًا عمَّا سبق– عنوان **(ٱلۡاِسۡمُ)**؛ ليناسب الجرم المذكور، وعبر بمادة (ف س ق) الدالة على معنى الخروج عن ربقة الدين، وآثر التعبير بالبعدية؛ للإيذان بكون الفسق والإيمان لا يجتمعان، والإشعار بأنَّ البون

(١) إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٢١ وما بعدها بتصرف. وتبعه أ.د/ وهبة الزحيلي قائلا: " ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [الحجرات: ١١]: فهم لا غيرهم ظلمة". التفسير المنير: ٢٦/ ٢٤٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٥٠ بتصرف.

بينهما بعيد، كما آثر وصف الإيمان؛ ليقع بليغ التناسب بين المنهي عنه الذي يسبب الإيذاء النفسي، وفي ذات الوقت يتعارض مع البعد الإيماني، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ كلًّا من الألم النفسي، والبعد الإيماني كليهما أمر معنوي. لا سيما أسلوب الحصر؛ حيث قد جاء تسجيلًا عليهم، وردعًا لهم، ومبالغةً في النهي عمَّا خوطبوا به، وحثًّا لهم على عدم مقارفته.. إلخ، مع مراعاة الإيجاز المحكم، والإعجاز المحقَّق؛ فبلغ إحكام النظم، وبديع السبك مبلغه، وتقرَّر تمكُّن مفرداته، وإعجازها على آكد وجه وأبلغه؛ ممَّا يسجل سمو النظم القرآني، ويقرُّ شاهدًا بإعجازه البياني!

الخاتمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرة لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلوم وألوان الحكم العجب العجاب، وجعله أعظم الكتب قدرًا، وأجلها في النفوس وقعًا، وأعذبها نظمًا، وأغزرها علمًا، وأبلغها خطابًا؛ فترى كلَّ ذي فنٍ منه يستمدُ، وعليه يعتمدُ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له رب الأرباب، وأشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله ﷺ، أفضل الخلق بالحقيقة لا المجاز، وأعلمهم بأسرار الكتاب، وحقيقة الإعجاز.

صلى الله على أتمّ برته خيرًا وفضلًا، وأطيبهم أصلًا وفرعًا، وعلى آله الكرام، وصحبه الأئمة الأعلام ﷺ، الذين عرفوا مقاصد التنزيل؛ فحصَّلوه، وأسسوا قواعده، وفصَّلوه، وعلى مَنِ اقتفى أثرهم، صلاةً وسلامًا دائمين، ترفع منار قائلها، وترسل عليه سحائب المغفرة والرحمة بوابلها.

وبعد، فقد وفقني الله ﷻ في إخراج هذا البحث، ويسر لي السبل؛ لأصل إلى منشوده الأسمى، من إبراز روعة المواجهة الإلهية إزاء ما حدث في البيئة الإسلامية، وكيفية تصويره، ودقة التعبير عنه.

وقد بذلت في ذلك قصارى جهدي، فإن كنت أحسنت؛ فمن الله ﷻ، وإن كانت الأخرى؛ فمن نفسي الضعيفة، وحسبي شرف المحاولة، وعليه ﷻ قصد السبيل.

هذا، ويمكن بعد حمد الله ﷻ، وتوفيقه، إيجاز **أهم نتائج، البحث، وأهدافه في النقاط التالية:**

١ – **توجه** البحث بالدراسة، والتحليل إلى ثلاثة أسباب للإيذاء المعنوي، والقتل النفسي، في ضوء أسباب النزول، وهي ممثلةً في: (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب)؛ ابتداءً بذكر الآية التي انطوت عليها، مع عزوها، ثُمَّ ذكر مناسبتها، وتقرير سياقها، وسبب نزولها، وذكر أقوال العلماء بشأنها.

٢ – **انطلقت** تلك الدراسة من منطلق أنَّه لا سبيل لفهم القرآن الكريم إلَّا من خلال لغته التي بها نزل؛ فهي مفتاح التعامل معه، وسبيل الوقوف على إعجازه.

٣ – تناول البحث بالتحليل مواد: (س خ ر)، و (ل م ز)، و (ن ب ز)، في ضوء دلالتها اللغوية، واستعمالاتها العربية، وبَيَّنَ أنَّ لكلٍّ منها مدلولاتٍ كثيرةً، واستعمالاتٍ عربيةً أصيلةً، مع إثبات مبدأ التوسع في المعنى؛ من خلال توظيفها، والإفادة منها– ما أمكن–؛ إذ به يَتَأَتَّى **الكشف** عن حقيقتها، وارتسام صورها، **والإعراب** عن خصائصها، **والوصول** إلى كيفية مواجهتها، وتقديم العلاج المناسب لها، **والإفصاح** عن وجه تمكنها نظما، وبديع وظيفتها سياقًا، واقتضائها حالًا، **وإعلان** براهين بلاغتها؛ خلوصًا إلى إثبات سمو نظمها القرآني، وتقرير وجه إعجازها البياني.

٤ – **خلصت** الدراسة إلى أنَّ أسباب اختيار المفردة في سياقها، ترجع في مجملها إلى خصائصها، التي لا يشاركها فيها أيُّ مفردةٍ أخرى في أيِّ تركيبٍ آخر؛ فهي واقعيةٌ، صادقةٌ، موحيةٌ، معبرةٌ، فصيحةٌ، بليغةٌ، وإنَّما يؤول ذلك إلى: سعة معناها، وعمق دلالتها، وثراء استعمالاتها، وفيض مكنوناتها، وكثرة إيحاءاتها، وتعدد إشاراتها، وظلال مطاويها، وصيغة بنائها، وغير ذلك من حيثياتٍ، كلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، قد توفرت لها دون غيرها مما هو قريبٌ منها في بابها؛ فجعلتها فارسةً تجول في ساحة النظم بسيف الحجة، والبرهان، تجادل بفصيح القول، وبليغ الكلام.

٥ – **قرَّر** البحث الأثر التفسيري البديع لأسباب النزول، مجليا بديع العناية الإلهية، وروعة المعالجة الربانية للقضايا المستجدة على الواقع الإسلامي، مع بيان دقة التراكيب القرآنية في التعبير عنها، وبلاغة مفرداتها، وإعجاز نظمها في مواجهتها، ومبرزًا كيفية محاربتها: إصلاحًا، وإرشادًا.

٦ – **جمع** البحث بين الأصالة، والمعاصرة، وذلك من خلال النظر في مواجهة القرآن الكريم لما استجد من قضايا، وتنزيل ذلك على الواقع المعاصر، رابطًا بين الأسباب، ومسبباتها؛ للإفادة من المعالجة الإلهية تجاهها، وتقريرًا لمبدأ صلاحية القرآن لكلِّ زمكانٍ.

هذا، ويعد البحث دليلًا قاطعًا على أنَّ القرآن الكريم معجزٌ: أسلوبًا، ونظمًا، ذكرًا، وحذفًا، وأنَّ إعجازه باقٍ إلى قيام الساعة. اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل، وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا يا أرحم الراحمين.

أبرز التوصيات

بعد معايشتي لهذا البحث والذي أسأل الله ﷻ أن يتقبله، وأن ينفعني به، وينفع به قارئه، وكاتبه، وكل من أسهم في إخراجه، أو قدم لي فيه نصحا أو توجيها، وأن يمن علينا من فضله؛ فيعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا– بعد ذلك أوصي نفسي وإخواني وأخواتي بما يلي:

أولًا: تقوى الله تعالى لاسيما بر الوالدين، والتذرع بالإخلاص، والصدق، والأمانة، والمثابرة، مع الجد والاجتهاد، وبذل كل ما هو نفيس في سبيل العلم والتعلم.

ثانيًا: الحرص على تناول الموضوعات التي تتسم بعموم النفع، والجدية، مع الأصالة، ومواكبة التطور الفكري للأجيال المتلاحقة.

ثالثًا: تجنب تكرار عمل السابقين، والاقتصار على جمع أقوالهم، ونقلها، والحرص على الابتكار، ومعالجة جوانب جديدة تخدم القرآن الكريم، وتبرز إعجازه، وتستفيد وتفيد من عطاءاته المستمرة.

رابعًا: التزام الموضوعية وعدم التعصب لعالم، أو رأي، أو مذهب؛ فإن ذلك مما يزعزع الثقة في الباحث، ويقلل من قيمة بحثه، ويقلص وجه النفع به.

خامسًا: توجيه أنظار الباحثين إلى دراسة الموضوعات المكملة لمنظومة الدراسات التحليلية، والموضوعية، والمقارنة التي تبرز عظمة المفردة، أو الأسلوب، أو الموضوع القرآني، لاسيما إذا جمعت بين الأصالة والمعاصرة، ويمكن اختصارها في محورين.

أ – الدراسات التحليلية، وموضوعاتها كما يلي:

١. أسباب النزول وأثرها التفسيري في النظم القرآني.
٢. الدلالة اللغوية للمفردة في سياق المنهيات، وأثرها في التوسع في المعنى.
٣. الأسلوب القرآني، ودوره في الإعداد والتربية.
٤. الجانب المظلم في النفس البشرية، وكيفية التعامل معه.
٥. المفردة القرآنية في السياق الأخلاقي.

ب – الدراسات الموضوعية، وبيانها كما يلي:

١. المعالجة الإلهية للقضايا الاجتماعية في ضوء أسباب النزول.
٢. المفردة القرآنية، وإعجازها التشريعي (في ضوء السور المدنية).
٣. ملامح المدينة الفاضلة كما تصورها سورة الحجرات.
٤. عوامل إنجاح المجتمع في ضوء القرآن الكريم.
٥. عناية القرآن الكريم بالجانب الاجتماعي، وأهم مظاهره.

وبعد عرض أهم نتائج البحث، وأبرز توصياته، أسأل الله ﷻ: أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، ويجنبنا الزلل، ويعصمنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. وصلى الله، وسلم، وبارك، على سيدنا مُحَمَّد ﷺ، وعلى آله، وصحبه ﷺ أجمعين. **وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.**

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم، قدمته؛ لكونه أساسَ العلوم، ومعتمدَها، وواسطة عقد الفنون بأسرها.

ثانيًا: المصادر المطبوعة [1]:

(١) **وهي مرتبةٌ على حروف المعجم على النحو التالي:**

١. الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٢. أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت— لبنان)، الطبعة: الأولى: ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣. أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح— (الدمام)، الطبعة: الثانية: ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت- لبنان)، عام النشر: ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٥. الأعلام، لخير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر- أيار، مايو ٢٠٠٢م.

٦. ألفية ابن مالك في النحو والصرف، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، (ت: ٦٧٢هـ)، الناشر: دار السلام، الطبعة: السادسة، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، المحقق: مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٨. الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبي المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، المحقق: مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل— (بيروت)، الطبعة: الثالثة.

٩. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي مُحَمَّد جميل، الناشر: دار الفكر— (بيروت)، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

١٠. البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، المحقق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى: ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

١١. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، للأستاذ الدكتور/ فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار عمار، الطبعة: السابعة.

١٢. التبيان في تفسير غريب القرآن، لأحمد بن مُحَمَّد بن عماد الدين بن علي، أبي العباس، شهاب الدين بن الهائم (ت: ٨١٥هـ)، المحقق: د/ ضاحي عبد الباقي مُحَمَّد، الناشر: دار الغرب الإسلامي— (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٣. التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر– (تونس)، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
١٤. التعبير القرآني، للأستاذ الدكتور/ فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار عمار، الطبعة الثامنة، ١٤٣٤هـ– ٢٠١٢م.
١٥. تفسير أبي السعود= إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– (بيروت).
١٦. تفسير الإيجي= جامع البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ (ت: ٩٠٥هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية– (بيروت)، الطبعة: الأولى: ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م.
١٧. تفسير الرازي= مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.
١٨. تفسير الشعراوي= الخواطر، للشيخ مُحَمَّد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم.
١٩. تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد مُحَمَّد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى: ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.
٢٠. تفسير العز بن عبد السلام= تفسير القرآن، لأبي مُحَمَّد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: ٦٦٠هـ)، المحقق: د/ عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم – (بيروت)، الطبعة: الأولى: ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.
٢١. التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي– (القاهرة).
٢٢. تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – (القاهرة)، ط/٢: ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م.
٢٣. تفسير الماتريدي= تأويلات أهل السنة، لمحمد بن مُحَمَّد بن محمود، أبي منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، المحقق: د/ مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الأولى: ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.
٢٤. تفسير الماوردي= النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن مُحَمَّد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان).
٢٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للأستاذ الدكتور/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر– (دمشق)، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ.
٢٦. تفسير النيسابوري= غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن مُحَمَّد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية– (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور/ مُحَمَّد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة (مصر) للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – (القاهرة)، الطبعة: الأولى.
٢٨. تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور (ت: ٣٧٠هـ)، المحقق: مُحَمَّد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي-(بيروت)، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
٢٩. الجرح والتعديل، لأبي مُحَمَّد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي، ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- بحيدر آباد الدكن- (الهند)، دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، الطبعة: الأولى: ١٢٧١هـ- ١٩٥٢م.
٣٠. الجملة العربية تأليفها وأقسامها، لـ أ.د/ فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الرابعة: ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
٣١. الجملة العربية والمعنى، لـ أ.د/ فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة: ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
٣٢. الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي مُحَمَّد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت: ٧٤٩هـ)، المحقق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ مُحَمَّد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
٣٣. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي= عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر- (بيروت).
٣٤. حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، لعصام الدين إسماعيل بن مُحَمَّد الحنفي (ت: ١١٩٥هـ)، الناشر: منشورات: مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٣٥. حروف المعاني والصفات، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي (ت: ٣٣٧هـ)، المحقق: علي توفيق الحمد، الناشر: مؤسسة الرسالة- (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م.
٣٦. الحواشي التوضيحية على حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، لعصام الدين إسماعيل بن مُحَمَّد الحنفي (ت: ١١٩٥هـ)، الناشر: منشورات: مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٣٧. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.
٣٨. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، المحقق: د/ أحمد مُحَمَّد الخراط، الناشر: دار القلم- (دمشق).
٣٩. دلائل الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود مُحَمَّد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بـ(القاهرة)- دار المدني بـ(جدة)، الطبعة: الثالثة: ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
٤٠. روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر- (بيروت).

٤١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني= تفسير الألوسي، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية– (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
٤٢. زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.
٤٣. سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني في الجرح والتعديل، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)، المحقق: مُحَمَّد علي قاسم العمري، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى: ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٤٤. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق، الأميرية– (القاهرة)، عام النشر: ١٢٨٥هـ.
٤٥. سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبي عبد الله مُحَمَّد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، ومحمَّد كامل قره بللي، وعَبد اللّطيف حرز الله، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى: ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م.
٤٦. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبي عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق، وتعليق: أحمد مُحَمَّد شاكر (جـ ١، ٢)، ومُحَمَّد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض، المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– (مصر)، الطبعة: الثانية: ١٣٩٥هـ– ١٩٧٥م.
٤٧. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي بن مُحَمَّد بن عيسى، أبي الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (ت: ٩٠٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.
٤٨. شرح تنقيح الفصول، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي، الشهير بالقرافي (ت: ٦٨٤هـ)، المحقق: طه عبد الرءوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، الطبعة: الأولى: ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م.
٤٩. شرح الكافية الشافية، لمحمد بن عبد الله، بن مالك الطائي الجياني، أبي عبد الله، جمال الدين (ت: ٦٧٢هـ)، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، الناشر: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة، والدراسات الإسلامية (مكة المكرمة)، الطبعة: الأولى.
٥٠. صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥١. صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، المحقق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– (بيروت).

٥٢. العين= كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقق: د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي، الناشر: دار الهلال.
٥٣. غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبي القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: نحو ٥٠٥هـ)، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية- (جدة)، مؤسسة علوم القرآن- (بيروت).
٥٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة- (بيروت)، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه، وصححه، وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.
٥٥. فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب مُحَمَّد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، عُنِيَ بطبعهِ، وقدّم له، وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، (صيدا- بَيروت)، عام النشر: ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٥٦. الفروق اللغوية= معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قم)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
٥٧. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، لنعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (ت: ٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر- (الغورية، مصر)، الطبعة: الأولى: ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
٥٨. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، لمحمد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان).
٥٩. قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر، منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي، الحنفي، ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، المحقق: مُحَمَّد حسن مُحَمَّد حسن إسماعيل الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى: ١٤١٨هـ- ١٩٩٩م.
٦٠. قوت المغتذي على جامع الترمذي، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، إعداد الباحث/ ناصر بن مُحَمَّد بن حامد الغريبي، إشراف: فضيلة أ.د/ سعدي الهاشمي، الناشر: رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، عام النشر: ١٤٢٤هـ.
٦١. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد- (الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٦٢. كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين مسعود التفتازاني الهروي، وبهامشه: حاشية المير سيد شريف، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
٦٣. الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبي بشر، الملقب بسيبويه (ت: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، (القاهرة)، الطبعة: الثالثة: ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٦٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي– (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.
٦٥. الكليات= معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبي البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش، ومُحَمَّد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة– (بيروت).
٦٦. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على أبي الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر– (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
٦٧. لطائف الإشارات= تفسير القشيري، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب– (مصر)، الطبعة: الثالثة.
٦٨. اللباب في تهذيب الأنساب، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، الناشر: دار صادر– (بيروت).
٦٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، (القاهرة)، عام النشر: ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.
٧٠. مجمل اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، دراسة، وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة– (بيروت)، الطبعة: الثانية: ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.
٧١. محاسن التأويل= تفسير القاسمي، لمحمد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، المحقق: مُحَمَّد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية– (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.
٧٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير ابن عطية، لأبي مُحَمَّد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد، الناشر: دار الكتب العلمية– (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٧٣. مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ مُحَمَّد، الناشر: المكتبة العصرية– الدار النموذجية، (بيروت– صيدا)، الطبعة: الخامسة: ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.
٧٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن مُحَمَّد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبي العباس (ت: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية– (بيروت).
٧٥. معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب– (بيروت)، الطبعة: الأولى: ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.
٧٦. معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس أحمد بن مُحَمَّد (ت: ٣٣٨هـ)، المحقق: مُحَمَّد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى– (مكة المكرمة)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٧٧. معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، ومُحَمَّد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة– (مصر)، الطبعة: الأولى.

٧٨. معاني النحو، لـ أ.د/ فاضل صالح السامرائي، أستاذ النحو بكلية الآداب، بجامعة (بغداد)، الناشر: دار الفكر– (عمان)، الطبعة: الخامسة: ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
٧٩. المعجم الأوسط، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن مُحَمَّد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين- (القاهرة).
٨٠. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – (القاهرة)، الطبعة: الثانية.
٨١. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٨٢. مفتاح العلوم، ليوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبي يعقوب (ت: ٦٢٦هـ)، ضبطه، وكتب هوامشه، وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الثانية: ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٨٣. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، (دمشق- بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
٨٤. منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه= الجزرية، لشمس الدين أبي الخير، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن يوسف، المعروف بابن الجزري، (ت: ٨٣٣هـ)، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٨٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة).
٨٦. وصف (عربي) في النظم القرآني "حقيقته، وأسراره"، تأليف: د/ أمل مُحَمَّد عبد الفراج علي راشد، المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة الأزهر، بحث مستل من حولية كلية أصول الدين- القاهرة، العدد (٣٣)، للعام: ١٤٤١هـ-٢٠٢٠م.